القسم الثاني

أسس اجتماعية

٢٧- آداب السلام- المصافحة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا

النساء ٨٦

٢- وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

الأنعام ٥٤

٣- وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ

هود ٦٩

٤-فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً

النور ٦١

الأحاديث:

١- عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابُّوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٢- عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ في المسجد يوما وعصبة من النساء قعود، فألوى[١] بيده بالتسليم (رواه الترمذي في الاستئذان وابن ماجه في الأدب).

---

(١) فألوى : أشار.

obeikandi.com

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يسلِّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير (رواه البخاري في الأدب).

٤- عن أنس قال رجل: يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له ؟ قال لا، قال أفيلتزمه[1] ويقبِّله؟ قال: لا، قال: فيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال: نعم (رواه الترمذي).

يعلِّم الله جل شأنه- المسلمين في الآية الأولى أدب لقاء بعضهم بعضا فيأمرهم إذا التقوا وحَيَّى الأخ أخاه بتحية يجب أن يحييه بتحية أحسن منها أو على الأقل يردها عليه بما يماثلها، والله فضل أن تكون أحسن منها. وهو أدب عظيم يعلمه الله للمسلمين، وهو امتداد لمبدأ الأخوة بين الأخ وأخيه في الإِسلام فلا يتعالى مسلم شريف أو ثرى على مسلم من العامة أو على مسلم فقير، فقد أصبح المسلمون متساوين، ولا شريف ومشروف ولا سيد ومسود ولا غني وفقير، فأي مسلم حياه أخوه المسلم يجب أن يبادر إلى رد تحيته بتحية مماثلة أو بتحية أحسن منها. ومعروف أن التحية في الإسلام هي السلام عليكم وردها ردا مماثلا بكلمة: وعليكم السلام بزيادة واو العطف في أول الرد، وقد يرد المسلم بأحسن من ذلك قائلا: وعليكم السلام ورحمة الله أو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وقد يبدأ المسلم بهذه الصيغة الأخيرة فيكون ردها مماثلا لها. وفى حديث تعليمي رواه أبو داود في الأدب أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فردَّ عليه: وعليكم السلام، ثم جلس، فقال النبي: عَشرٌ أي عشر حسنات جزاء هذه التحية. ثم جاء آخر، فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه بمثل ما قال، فجلس، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: عشرون أي عشرون حسنة لزيادتهم فيها كلمة: ورحمة الله. ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه بمثل ما قال، فجلس، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ثلاثون أي ثلاثون حسنة لزيادته فيها كلمة: وبركاته، أي خيراته الدائمة. وكل ذلك تحبيب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسود بين المسلمين المودة والمحبة عن طريق عدم التهاون في بدء المسلم أخاه بالتحية حين يلقاه وأني رد عليه بمثلها أو بأحسن منها، فإذا قال المسلم لأخيه السلام عليكم وجب أن يرد عليه بقوله: وعليكم السلام: أوي رد بأحسن من ذلك قائلا:

---

(١) رمل عالج : رمال كثيرة ببادية نجد.

obeikandi.com

وعليكم السلام ورحمة الله أو قائلا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول الذي اخترناه أن المسلمين لا يدخلون الجنة حتى يؤمنوا، ولا يؤمنون حتى يتحابوا. ويدلهُّم على ما يوثق الحب بينهم قائلا: إنه إفشاء السلام بينكم. وواضح أن كل ذلك في الإسلام تأكيد على نشر السلام والمودة بين المسلمين، بل بين الناس جميعا، إذ أوجب على المسلم أن يرد على غير المسلم تحية السلام. وبهذه التحية اليوميَّة كان الإسلام أول داع للسلام في الأرض منذ أربعة عشر قرنا وهو يكرَّر في كل صلاة، وجعله الله أحد أسمائه الحسنى تأكيدا لهذه الدعوى وسمَّى الجنة دار السلام حثا عليه.

والله عَّز شأنه في الآية الثانية يأمر رسوله، إذا جاءه المؤمنون أن يحييهم بتحية السلام، وهى تحية تحمل في أطوائها أمانا لصاحبها وللراد عليه لأن معنى السلام الأمان، وكأنها تعلن الثقة بين الطرفين، فهما في الإسلام متوادَّان. وكما يحيِّى رجال المسلمين بعضهم بعضها يحيى النساء بعضهَّن بعضا ويحييهن الرجال بتحية الإسلام قائلين السلام عليكن على نحو ما نرى في الحديث الثاني، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مرَّ بالمسجد، وجماعة من النساء قعود فأشار بيده بالتسليم أي أنه جمع بين اللفظ، فقال لهن السلام عليكن، وبين الإشارة باليد لتنبيه النساء إلى السلام.

والآية الثالثة تحكى قصة وفود رسل الله من الملائكة على إبراهيم ويقال كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقد وفدوا عليه بالبشرى له ولزوجته سارة بابنهما إسحق، ويذكر الله حينما بدءوا الوفود عليه أنهم قالوا سلاما أي تحية لك قال: سلام، فرَّد التحية بمثلها. ويصور الحديث الثالث آداب السلام ومن ينبغي عليه المبادرة به، ويرتِّب الرسول المبادرين به، فالراكب يسلم على الماشي تواضعا له، والماشي على القاعد، لأنه مارٌّ به، والقليل على الكثير لأن حق الكثير أكبر وأعظم، والصغير على الكبير، لأنه مأمور بأن يوقِّر الكبير ويتواضع له.

والآية الرابعة يأمر الله فيها المسلمين إذا دخلوا بيوتا أن يسلموا على أنفسهم أي يسلم بعضهم على بعض، فيسلم الزوج على زوجته ومن معها، ويسلم الزائر على أهل الدار. والآية تلزم المسلم بالسلام على القريب مثل السلام على البعيد، وعن أنس بن مالك قال: أوصاني الرسول صلى الله عليه وسلم بخمس خصال، قال: يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك،وسلم على مَن لقيك من

أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت- يعنى بيتك، فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصَل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوَّابين قبلك، يا أنس: ارحم الصغير ووقِّر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة.

والحديث الرابع في استحباب المصافحة عند اللقاء بعد السلام، وقد يدل الحديث على كراهية المعانقة والتقبيل في السلام، ولكن جاء في الترمذي عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، فأتاه فقرع الباب فقام إليه النبي صلى الله عليه وسلم فاعتنقه وقبَّله.وإذن فالمعانقة في السلام والتقبيل مباحان، وهما يكثران في عصرنا في السلام بين الأصدقاء كما يكثر تقبيل الأطفال شفقة ومحبة. أما الانحناء فمكروه، ويحرم الانحناء بهيئة الركوع لأن ذلك خاص بتعظيم الله في الصلاة، ويستحب أن يلقى المسلم أخاه ببشاشة الوجه وتهلله مع الابتسام اللطيف وعبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله الذي مر بنا في غير هذا الموضع حين قال: لا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه كله بشر وأنس ومودة.

obeikandl.com

٢٨- الاستئذان- آداب المجالس

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا

النور ٢٧

٢- وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

النور ٥٩

٣- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ

المجادلة ١١

٤-يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

الحجرات ٢

الأحاديث:

١- عن أبى موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلا فارجع (رواه مسلم في الاستئذان).

٢- عن كلدة بن الحنبل قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فدخلت عليه ولم أسلِّم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع فقل السلام عليكم أأدخل (رواه أبو داود والترمذي في الاستئذان).

٣- عن جابر قال: أتيت الرسول صلى الله عليه وسلم فدققت الباب، فقال: مَن ذا ؟ فقلت: أنا، فقال: أنا أنا كأنه كرهها (رواه البخاري ومسلم).

٤- عن ابن عمر قال: لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا (رواه مسلم في كتاب السلام).

obeikandl.com

والله- تقدس اسمه- يبين في الآية الأولى آداب الاستئذان للمسلم الذي يزور أحد الناس قريبا أو غير قريب في بيته فإنه لابد أن يستأنس أي يستأذن قبل دخوله البيت حتى يأخذ صاحب البيت وأهله الفرصة في استقباله، فقد يكون في البيت ما ينبغي ستره على الزائر، وحتى إذا كانت الزيارة لإحدى محارمه فقد تكون في حاجة إلى إصلاح شأنها. وقد يكون صاحب البيت في شقاق مع الزائر ويخشى أني شتمه أو يتطاول عليه فلا يريد لقاءه. ظروف مختلفة كثيرة تحرج صاحب البيت إن دخل عليه الزائر دون استئذان، ولذلك أوجبه الله. ومما يروى من لطف الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك أنه قدم المدينة من إحدى مغازيه مع جيشه نهارا فأقام يظاهرها مع جنوده وقال لهم انتظروا حتى ندخلها مساء وحتى تمتشط الشَّعِثة (متلبدة الشعر) وتستحدَّ (أي تستعد) المغيبة (التي غاب عنها زوجها). وهو أدب عظيم في إعطاء المرأة الفرصة كي تزدان قبل لقاء الزوج. وكان الظلام المعتم يغمر المدينة ليلا، فكان ينهى أصحابه أن يطرق أحدهم أهله فيه دون إعلامهن، حتى لا يعرضهم لأي خوف أو فزع، وقالت زينب زوجة عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل إنه كان إذا جاء من حاجة قضاها وانتهى إلى الباب تنحنح لتعرف زوجته أنه قدم، وإذا دخل الدار تكلم ورفع صوته كراهة أن يقف على أمر يكرهه. والآية تأمر بالجمع بين الاستئذان والسلام، وقيل إن الاستئذان فرض والسلام مستحب. وبيَّن الحديث الأول أن المستأذن يكرر استئذانه ثلاث مرات، فإذا لم يؤذن له انصرف، كما بين الحديث الثاني صيغة الاستئذان، وهي أن يقول الزائر السلام عليكم أأدخل؟ وكان الرسول يعلمها الصحابة كما في هذا الحديث. ومن آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن في مواجهة الباب حتى إذا فُتح لم ير ما وراءه من المنزل، إنما يقف عن يمين الباب أو يساره.

والآية الثانية توجب على المؤمنين إذا بلغ الأطفال الحلم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار من أبناء الرجل وأقاربه أي أن حكم الآية السابقة ينطبق عليهم فلا يزورون أحدا ويدخلون بيته إلا بعد الاستئذان. ويبين الرسول في الحديث الثالث أنه لابد لمن يستأذن بدق الباب إذا سُئل مَن هو أن يعيِّن شخصه بالاسم أو بالكنية أو باللقب وأن لا يجيب بكلمة غامضة مثل أنا، فقد كره ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأصوات تتشابه ولفظ أنا مبهم، ومن بداخل البيت يريد أن يعرف شخص المستأذن بعينه كي يأذن له في الدخول.

والآية الثالثة في آداب المجالس والله- جلَّ وعزَّ- يخاطب فيها المؤمنين بالتفسح في المجالس أي التوسع إذا طُلب منهم ذلك تكرُّما من الأخ الجالس لأخيه الواقف، وهو صنيع يوثق المحبة بين المسلمين. والآية مع نزولها في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل مجالس المسلمين سواء كانت مجالس علم أو وعظ أو غير ذلك، لما في هذا التفسح من مواساة محبوبة. ومن الخطأ أن يظن الشخص أن توسعته لأخيه تعد نقصا في حقه إذ إن ذلك منه تفل كريم، ولا يضيع عليه هذا التفضل، بل يجزيه الله به في دنياه وآخرته. وينبغي أن لا يحاول من يأتي مجلسا متأخرا القعود في صدره أو في وسطه أو أن يقيم شخصا ويجلس مكانه. وفى كتب الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس وقد نهى نهيا باتا أن يقوم له الصحابة قائلا إن ذلك من شعار العجم. والآية الرابعة توجب أدبا في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وحضرته أن لا يرتفع صوت صحابي على صوت الرسول وأن لا يجهروا له بالقول. وهو أدب حميد أن يكون صوت الشخص في المجلس بين الهمس والجهر بحيث لا يؤذى الجالسين وهى مرتبة رفيعة من الأدب الإلهي في المجالس، وفى وصية لقمان لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ والغض من الصوت: خفضه. ومن آداب المجلس إصغاء الشخص لحديث جليسه والإنصات له وأن لا يقاطعه في كلامه.

٢٩- الأمر بالمعروف- النهى عن المنكر

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

آل عمران: ١٠٤

٢- كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

آل عمران: ١١٠

٣- وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

التوبة: ٧١

٤- الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

الحج: ٤١

الأحاديث:

١- عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان (رواه مسلم في كتاب الإيمان ورواه أبو داود وابن ماجه).

٢- عن حذيفة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لتأمرُن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعون فلا يستجاب لكم (رواه الترمذي).

٣- عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا ما لنا في مجالسنا بُدٌّ نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فيها فأعطوا الطريق حقَّه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال: غَضُّ البصر وكف الأذى وردّ السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (رواه البخاري، ومسلم في الاستئذان، ورواه أبو داود في الأدب).

٤- عن أسامة بن زيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شخصا أُلقى في النار يوم القيامة سُئل ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقال: بلى كنت آخر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه (رواه البخاري في صفة النار وفى الفتن).

والله- جَلَّ شأنه- في الآية الأولى يأمر المؤمنين أن يكون بينهم أمة أي جماعة أو طائفة تدعو إلى الخير أي إلى الأعمال الخيِّرة الطيبة ويمكن أن يكون المراد في الآية بالخير القرآن الكريم والحديث أو بعبارة أخرى الإسلام يدعو إليه الأمة ويحث عليه. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هو ما يعرف عقلا وشرعا من الأعمال الحسنة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما ينكر على صاحبه عقلا وشرعا من الأعمال الشريرة والسيئة. ومن الخطأ ما يقوله بعض الفقهاء من أن النهى عن المنكر واجب ما لم يجر إلى منكر أدهى، لأن ذلك قد يؤدى إلى إلغاء النهى عن المنكرات جميعا، وبالتالي إلى إلغاء هذا النهى الإلهي عن المنكر جملة. وتخصيص الله له جماعة من الأمة يجعله واجبا عليها، ويحلّ محلها ولاة الأمور في نهى الناس عن المنكرات واتخاذ الأسباب المحققة لذلك. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول: من رأى منكم منكرا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وكأنه يصور درجات التغيير وتمنيه. والأمر والنهى الفعليان إنما يكونان عن طريق أولى الأمر، وهو ما جعل حكام المسلمين فعلا في العصور الإسلامية يقيمون للنهى عن المناكر نظام الحسبة، وكان عاما في البلاط العربية شرقا وغربا، وبدأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فعين لمراقبة الأسواق والأسعار سيدة هي الشفاء رضى الله عنها، وكانت ولاية الحسبة من الأعمال الرفيعة، وكان يتولاها في كل بلد فقيه نابه، ويكون له في البلاد الكبيرة مساعدون من الفقهاء.

والله- تبارك وتعالى اسمه- في الآية الثانية يقول إن الأمة الإسلامية أفضل الأمم التي أخرجت ووجدت في الدنيا، وهى أفضلية مرجعها إلى رسولها وما أُمر بتبليغه إليها من الهدى ومن

الشريعة المثالية، مما جعلها أو بعبارة أدق مما جعل أفرادها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهو نهى وأمر وُكلا مع الزمن وتطور الحياة في الأمة إلى أولى الأمر، ولابد أن يسندهم في ذلك الفقهاء الراسخون في العلم الذين يتمثلون تعاليم الشريعة الإسلامية على وجوهها الصحيحة. وجَعْلُ الله التفضيل للأمة الإسلامية راجعا إلى فضيلتي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يفهم منه أن هاتين الفضيلتين تخصان الأمة الإسلامية وأن أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية لم يعملوا على إشاعة هذا النهى وذلك الأمر. أما قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فإن الآية لم تنزل في وصف أهل الكتاب عامة، إنما نزلت في وصف طائفة قليلة منهم اعتنقت الإسلام مثل عبد الله بن سلام. ويدل الحديث الثاني على مدى حرص الرسول أن يصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قانونين ثابتين في أمته ثبوت الصخر حتى ليقول لأصحابه إنكم إذا لم تتمثلوا هذين القانونين تمثلا تاما فإن الله يوشك أن يصب عليكم عقابا منه، مع إغلاق أبواب رحمته دونكم فلا يستجاب دعاؤكم له مهما توسلتم وتضرعتم إليه.

والآية الثالثة تنص على أن المؤمنين والمؤمنات بينهم لحمة وثقى أوثق من لحمة الدم هي لحمة الإسلام التي تجعل بعضهم أولياء بعض يتناصرون ويتعاضدون في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن بصيرة نيرة، يصدر عنها المؤمنون والمؤمنات صدورا طبيعيا صدور الضوء عن الشمس. وهو إعلاء للمؤمنات لأنهن يقبلن على ذلك عن إيمان بدينهن لا عن تقليد للرجال المؤمنين. ويوصى الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث أصحابه إذا جلسوا في الطرق أن يعطوا الطريق حقه من رد السلام وغض البصر وكف الأذى عن الناس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الأثيم. وقال كما في الحديث الرابع إن من يأمر بالمعروف ولا يؤديه وينهى عن المنكر ويأتيه سيصلى نارا حامية.

ويصف الله- عزَّ سلطانه- في الآية الرابعة المهاجرين والمسلمين بأنهم إن مكَّنهم في الأرض وسيطروا على أجزاء منها نشروا دعوة الإسلام: من إقامة الصلاة عماد الدين وإيتاء الزكاة ركنه المتين ونفَّذوا- بقوة- قانونيه العظيمين: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهما القانونان الجامعان لشئون الدين ودقائق أحكامه. وهو ما حدث فعلا فقد نشروا دعوة الإسلام وأوامره

ونواهيه في كل ما فتح الله لهم من البلدان في عهدي أبى بكر وعمر: في العراق وإيران بقيادة سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، وفى الشام بقيادة سيف الله: خالد بن الوليد، وفى مصر بقيادة عمرو بن العاص. ومكَّن الله لهم وللإِسلام في هذه البلدان فأقيمت فيها الصلاة وأخْرجت فيها الزكاة وعمَّ فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وظل ذلك دأب المسلمين كلما فتحوا أرضا شرقا حتى الهند وغربا حتى المحيط الأطلنطي، وبذلك تحقق دائما للمسلمين والإِسلام وعدُ الله العظيم.

obeikandl.com

٣٠- برّ الوالدين والأقارب

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- ۞ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)

الإسراء: ٢٣، ٢٤

٢- وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ

لقمان: ١٤

٣- وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

النساء: ١

٤-وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهَّ

الأنفال: ٧٥

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن مسعود رضى اله عنه أنه سأل الرسول صلى الله عليه سلم: أي العمل أحبُّ إلى الله تعالى ؟ قال: الصلاة على أوقاتها، قال ثم أي ؟ قال ثم برُّ الوالدين (رواه البخاري في كتاب الأدب).

٢- عن أبى بكر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قالها ثلاثا قلنا بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين (رواه البخاري في كتاب الأدب ومسلم في كتاب الإيمان).

obeikandi.com

٣- عن أبى أيوب الأنصاري رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم (رواه البخاري في كتاب الأدب).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى خلق الحلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرِّحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم أما ترضين أن أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى قال فذلك لك (رواه البخاري في كتاب الأدب ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب: باب صلة الرحم).

جمع الله- عزَّ شأنه- في الآية الأولى بين وصيتين أساسيتين من وصيا الشريعة الإسلامية، وهما عبادة الله وحده لا شريك له، وبر الوالدين، والله كثيرا ما يقرن في القرآن الكريم برَّ الوالدين بعبادته وطاعته تعظيما له، حتى يرعاه الأبناء ويوفِّهما حقوقهما عليهم، وإذا كبر أحدهما أو كلاهما فلا تؤذهما أي أذى باللسان من مثل قول ﴿أف﴾ متضجرا، ولا تنهرهما أو تزجرهما عن شيء، بل أكرمهما بقول ليِّن يقع من نفسيهما موقعا حسنا ثم يقول الله في الآية الثانية ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ الناشئ عن الرحمة بهما تذللا كريما منك لأبويك، وادعُ الله لهما أن يشملهما برحمته لتربيتهما لك وعنايتهما ورعايتهما لك في صغرك بالمهد وحين كنت صبيا. وأوصى الرسول مرارا وتكرارا- كما في الحديث الأول- ببرِّ الوالدين وسعة الإحسان إليهما وترضيتهما وإسباغ الابن كل ما يستطيع من الخير عليهما وحذَّر مرارا وتكرارا من عقوق الابن لأبوية، ويجعله- كما في الحديث الثاني من الإشراك بالله من أكبر الكبائر، إذ الإشراك كفران بالله الخالق الرازق والعقوق كفران بالأبوين وما أدّيا للابن من خدمات في صغره لا تكاد تحصى، وهو بذلك يجحد حقوقهما عليه، وجدير به أن يعاقب ربه عقابا أليما فيدخله النار جزاء وفاقا لعقوق أبويه. وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: لو علم الله شيئا في العقوق أدنى من كلمة (أف) لحرَّمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وفى الحق أن عقوق الأبوين شاذ نادر وأن الكثير الغامر هو البر بهما كما أوصى الله ورسوله، وفى التراث العربي أخبار كثيرة عن بر عظيم للأبناء بالآباء، فمن ذلك أن الخليفة المأمون قال: لم أر أحد أبرّ من الفضل بن يحيى البرمكي بأبيه- وكان الرشيد زجَّ بهما في السجن- وبلغ من بر الفضل لأبيه أنه كان لا يتوضأ في الشتاء إلا

بماء ساخن، ومنعهما السجان من الوقود في ليلة شديدة البرودة، فلما نام يحيى قام الفضل إلى قمقم (إناء) نحاس فملأه ماء، وأدناه من المصباح ولم يزل قائما وهو في يده إلى أواخر الليل، واستيقظ يحيى وقد سخن الماء، فشكر للفضل صنعه. وكان أحد الأبناء البررة بآبائهم واحدا من الثلاثة الذين حكى الرسول صلى الله عليه وسلم قصتهم في مبيتهم بغار في الجبل، واستيقظوا فوجدوا صخرة تدحرجت من الجبل وسَدَّت بابه، فلجأ كل واحد يدعو ربه بصالح عمله، ومرَّ بنا كيف انزاحت الصخرة بدعاء الثلاثة ربهم بصالح أعمالهم. وكان دعاء الابن البار: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أسقى زوجتي وأولادي من اللبن مساء حتى أسقيهما أولا، وتأخرت ليلة فوجدتهما نائمين، فلبثت- وقدح اللبن على يدي- أنتظر استيقاظهما حتى بَرَق (أضاء) الفجر، فاستيقظا فشربا اللبن. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت سيئا وكان أول الثلاثة دعاء.

ويقول الله- جَلَّ شأنه- في آية سورة لقمان إنه وصَّى الإنسان بوالديه كي يقدِّم لهما كل ما يستطيع من بر وخير جزاء لما تحملا من مشقة في تربيته حتى بلغ أشده، ويكتفي الله في تصوير مشقتهما بتصوير ما تتحمله الأم في حمل ابنها من ضعف طاقتها على هذا الحمل، ويتلطف الله فيقول إنها تحمله وهنا على وهن أي ضعفا على ضعف (وفصاله) أي فطامه ﴿فِي عَامَيْنِ﴾. وما أعظم ما تتحمله الأم في ذلك كله من عناء مع الشفقة الشديدة على رضيعها ذكرا أو أنثى. ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم البر بها في حديثه المشهور الذي رواه البخاري ومسلم عن أبى هريرة من أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صُحبتي ؟ قال: أمك، قال الرجل ثم من ؟ قال أمك، قال ثم من ؟ قال أمك، قال ثم من ؟ قال أبوك. وليس تكرار اسم الأم في الحديث لبيان فضلها على الأب وإنما لتأكيد البر بهما، ويكفيها فضلا وفخرًا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إن الجنة تحت أقدام الأمهات. ويُروَى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إن لي أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها ؟ قال عمر: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها.

ويقرن الله- تبارك اسمه- في آية سورة النساء تقواه بتقوى ذوى الأرحام تأكيدا لأداء حقوقهم، والأرحام جمع رحم، وأصله مستقرّ الولد في بطن أمه، ثم أطلق على القرابة سواء نشأت عن أمومة واحدة أو لم تنشأ، ومن ذلك قولهم وصلتك رحم أي قرابة. وتؤكد آية سورة الأنفال هذا الوصل وأن لذوى الأرحام حقوقا مبينة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في سورة محمد يقول- جلَّ شأنه-: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ والله في الآيتين يجعل تقطيع الصلات بين الأرحام أو القرابات جرما كبيرا يوصف صاحبه بالعمى والصمم لأنه يقطّع الأواصر التي توثق المحبة بين الأقارب أو بين أفراد الأسرة، وهى محبة أو مودة لا يريدها الله لأفراد الأسرة الأقارب فحسب، بل لأفراد الأمة جميعا عن طريق ترابطهم بإخاء ديني وثيق. والأحاديث مثل الحديث الرابع كثيرة في صلة ذوى الأرحام صلة بارَّة حميدة وأنها طريق قويم للجنة ومتاعها الخالد.

obeikandl.com

٣١- حقوق المرأة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً

النساء ١

٢- يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ

النساء ١١

٣- وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللهَ مِن فَضْلِهِ

النساء ٣٢

٤- وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)

الروم ٢١

الأحاديث

١- عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوجَ ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء (رواه البخاري في بدء الخلق والزواج ومسلم في الزواج والنسائي في عشرة النساء).

٢- عن ابن عباس: كانوا في الجاهلية يُعطون مال الميت للوالد، ولا يورِّثون المرأة ولا البنت ولا الصبي إنما يعطون المال لمن قاتل على الفرس وحاز الغنيمة. وعنه: كان الرجل في

opeikanar.com

الجاهلية إذا مات ورث زوجَته أولياؤه فإن شاء بعضهم زواجها تزوجها أو زوجوها لمن يشاءون (أخرج ذلك البخاري ورواه ابن كثير).

٣- عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبغض الحلال إلى الله الطلاق (رواه أبو داود في السنن بأبواب الطلاق).

٤- عن عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الأمير راع وهو مسئول، والرجل راع على أهله وهو مسئول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول (رواه البخاري في كتاب الأحكام).

الخطاب في الآية الأولى للناس جميعا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أي احذروا عذابه وأدُّوا له عبادته وحده لا شريك له، فهو ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. والمفسرون للقرآن الكريم يجمعون على أن المراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر جميعا ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ والمراد حواء، ويقول المفسرون إنها خلقت من ضلع آدم بدلالة قوله تعالى: ﴿منها﴾ وحين رآها أنس إليها وأنست إليه. والزوج يطلق في تكوين الأسرة على الرجل والمرأة وقد تضاف لها تاء التأنيث تمييزا من الرجل. والله- جل شأنه- يشير في الآية إلى تكوين الأسرة الإنسانية الأولى وأنها من زوج وزوجة أو من أب وأم وهما مختلفان تشريحيا وفسيولوجيا من أجل التناسل والإنجاب، إذ المرأة تحمل الجنين تسعة أشهر وترضعه نحو سنة ونصف، وهما دوران خاصان بالمرأة تتميز بهما، بينما يتميز الرجل بأنه أكثر منها قوة وتحملا للعمل، ولذلك من الظلم للمرأة أن يقال إنها والرجل متماثلان. وهو ما جعل القرآن والسنة يعطفان عليها مع دعوة الرجل للشفقة عليها كما جاء في الحديث الأول من توصية الرجال بالنساء في المعاشرة، وأن يقبلوا ما قد يكون في المرأة من اعوجاج لأنها مخلوقة من ضلع أعوج، وأعوج ما في الضلع أعلاه إشارة إلي لسانها وما قد يند عنه من ألفاظ نابية، وأن يُغفر لها ذلك، فإن الرجل إن حاول أن يقيمها كان مثله مثل من يحاول تقويم اعوجاج من ضلع، فإنه الرجل إن حاول أن يقيمها كان مثله مثل من يحاول تقويم اعوجاج من ضلع، فإنه لن يستطيع تقويمه، فينبغي أن يصبر على اعوجاجها حتى تستمر عشرتها وحتى لا يؤدى شقاقهما إلى الفراق والانفصال. وتشير الآية الأولى بخلق حواء من آدم إلى ما ينبغي أن يكون بين الزوجة والزوج من التجانس وعدم الشقاق، كما تشير إلى الغاية من تكوين

الأسرة وهي التناسل لاستمرار الإنسان على الأرض، إذ قال- تبارك اسمه- (وَبَثَّ مِنْهُمَا) أي من آدم وحواء (رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) كثيرات ونشرهم في أنحاء الأرض على اختلاف أنواعهم وأممهم وألوانهم ولغاتهم وقدَّر لهم معايشهم وأحوالهم وأسبغ عليهم نعمة وآلاءه.

والآية الثانية في ميزات الذكر والأنثى وأن للذكر مثل حظ الأنثيين، وكانوا في الجاهلية لا يورِّثون الأنثى مطلقا زوجة أو غير زوجة كما يدل كلام ابن عباس، بل كانت الزوجة إذا مات زوجها تورث كأي شيء من متاعه، فنظَّم القرآن الميراث في الأسرة فجعل للذكر والأنثى حقوقا. وحقا جعل نصيب البنت- كما تقول الآية- النصف من نصيب الابن، لأن الابن يحتاج إلى الزواج ويدفع صداقه للزوجة من نصيبه في الميراث، ولأنه هو الذي يقوم بنفقة أسرته: زوجته وأبنائه، وليس على الزوجة شيء من ذلك مهما كانت ثرية، وأيضا عليه الإنفاق على والديه وإخوته وأقاربه إن كانوا محتاجين، مما يجعل على الابن التزامات أسرية مختلفة. فليس الغرض من تفرقة القرآن الكريم بين الذكر والأنثى في الميراث التفرقة في الحقوق بل تنظيم هذه الحقوق في الأسرة. وقد يقال إن الإسلام لم يسوِّ بين الرجل والمرأة فقد أباح للرجل أن تتعدد زوجاته، فيتزوج اثنين أو ثلاثا أو أربعا، وهو إنما صنع ذلك لأن الأمم تتكاثر بينها الحروب ويموت كثير من الرجال، كما كان شأن العرب في الجاهلية فيربو عدد النساء ثيبات وأبكارا على عدد الرجال، فإن لم توجد هذه الرخصة جرَّ ذلك إلى فساد اجتماعي كبير، وأيضًا قد تمرض الزوجة بمرض مزمن. ونفس بعض الدول التي لا تسمح بتعدد الزوجات يكثر فيها الأولاد غير الشرعيين، فدرءا لمفاسد كثيرة أباح الإسلام تعدد الزوجات واشترط عدالة الأزواج بينهم قائلا في مطلع سورة النساء: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ فقط ثم قال في نفس السورة، محذِّرا من تعدد الزوجات: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وكأن الله يجعل التعدد للضرورة وقد يقال إنه لم يسوِّ بين المرأة والرجل في الزواج والطلاق، فحرَّم على المرأة أن لا تتزوج إلا عن طريق أبيها أو وليها الشرعي، وذلك إنما يصدق على ناقصة الأهلية عقلا أو سنا وبلوغا، أما المرأة العاقلة البالغة فمذهب أبي حنيفة الفقهي المعمول به في المحاكم المصرية جعل لها أنْ تزوِّج نفسها وتستقل بعقد الزواج كما تستقل بعقد البيع والشراء في أموالها. ويقولون إن الإسلام أباح للرجل الطلاق وحده، وهذا أيضا غير صحيح فالمرأة لها حق الطلاق مثل الرجل، وقلما تطلب المرأة الطلاق حفاظاً على

الأسرة، فظُنَّ أنه حق للرجل. وقد ألزمه القرآن والسنة بحقوق مختلفة حين يعمد إلى الانفصال عن زوجته، وهي مبيَّنة في سورتي البقرة والطلاق. وحاول الله أن يفسح للزوجين في العودة إلى معاشرة كل منهما الآخر، فجعله مرتين ومع كل مرة عِدَّة من الأيام والأسابيع والأشهر لعلهما يصطلحان ويحبَّبهما الله في الصلح قائلا: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ومن قوله في ذلك للرجال بسورة النساء: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

وقد سوى القرآن بين المرأة والرجل في الفروض والحقوق الدينية من صلاة وزكاة وصيام وحج ومن ثواب ونعيم في الجنة، ويقول جَلَّ شأنه في سورة غافر: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. وسوى القرآن بين الرجل والمرأة في المسئولية الاجتماعية والسياسية بمثل قوله في سورة التوبة: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ في صلاح الأمة اجتماعيا وسياسيا. وسَوَّى الإسلام بين المرأة والرجل في العلم والتعليم فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرس لسيدات المدينة شئون دينهم، وكن يروين عنه أحاديثه وفى مقدمتهن السيدة عائشة زوجة الرسول. واشتهرت محدثات كثيرات حمل عنهن الحديثَ النبوي أئمةٌ كبار، وظلت المرأة المسلمة تُقْبل في العصور الإسلامية على العلم والتعليم حتى كان منهن طبيبات حاذقات.

والآية الثالثة في تمني ما في أيدي الناس من أموال عن طريق الميراث أو غيره سواء كانوا رجالا أو كُنَّ نساء، والله- جلَّ شأنه- ينهى المؤمنين والمؤمنات عن هذا التمني الذي يصعب أو يستحيل حصوله، تنزيها لهم وارتفاعا بهم عن أن يشغلوا نفوسهم بما قد يفسد علاقاتهم بعضهم بعض، وقد يجرهم إلى التحاسد والبغضاء. ويقول الله- جلَّ شأنه- ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ ﴾ وهو بذلك يسوِّى بين الرجل والمرأة في حق التملك لما اكتسباه من عمل قاما به. ويتبع هذه المساواة بين المرأة والرجل أن تستقل اقتصاديا عن زوجها، فتكون لها ثروته الخاصة، ولها أن تشترى وتبيع وتَّتجر وأن ترفع إلى القضاء خصوماتها، كل ذلك دون أخذ إذن زوجها وموافقته. ولكل هذه الحقوق المكفولة للمرأة المسلمة كانت لا تفقد اسم أبيها وأسرتها في الزواج ولا يضاف اسم زوجها إليها على نحو ما هو معروف في الغرب، بل تظل تحتفظ باسمها

الشخصي، مما يدل- بوضوح- على اكتمال حريتها في التصرف بأموالها وشئونها الاقتصادية. ويقول الله- تبارك اسمه- بعد نهى المسلمين عن التطلع إلى ما في يد المرأة أو الرجل من مال: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي سلوني من فضلى أعطكم ما تسألون، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج من الله، وهو عليم بمن يستحق من الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق من الآخرة فيوفقه لأعمالها الصالحة.

ويصور القرآن الكريم الصلة الوثيقة بين الزوجين بقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ ﴾ أي أنهما يبلغان من شدة الصلة الطيبة أن يكونا شخصا واحدا، فكل منهما لباس للآخر يغطيه ويستره كما يستره اللباس، فلا يخونه ولا يذيع سرَّه، حين يفضي إليه بسريرة نفسه وهمومه، فبينهما إخلاصٌ حميم. ويصف الله هذا الإخلاص بقوله في الآية الرابعة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والله يمتنُّ على الناس بأنه خلق لهم من أنفسهم أي من نوعهم زوجات يأنسون إليها، وسرعان ما تصبح الزوجة للزوج كأنها سكن يطمئن له، فيفضي إليها بما يشغله وبخواطره وأفكاره ويستشيرها في كل شئونه. ويضيف الله إلى ذلك المودة التي تنشأ بين الزوجين والمحبة إذ يصبحان بعد الزواج متحابين متوادَّين، ويضيف الله أيضا أنه جعل بينها رحمة ورأفة كرأفة الأبوة والأمومة. وكل هذه نعم عظمى يسبغها الله على الزوجين ليشعر كل منهما بواجباته لعشرته الصادقة وحقوقها في القيام على الأسرة ورعاية مصالحها ورعاية الأبناء خير رعاية. ويوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الرعاية في الحديث الرابع إذ يقول: الرجل راع على أهل بيته ينفق عليهم، ويقول الله ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ ﴾ أي قُتِّر ﴿ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾. ويذكر الرسول وجوه الإنفاق في حديث قائلا: دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في تحرير رقبة ودينار تصدَّقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك: فأجرُ النفقة على الأهل عند الله أكبر من أجر نفقه الصدقة على المساكين وأكبر من أجر النفقة في سبيل الله وحرب الأعداء، وهو حث عظيم لنفقة الزوج على أسرته من الزوجة والأبناء. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: المرأة راعية على بيت زوجها وولده، تقوم على تدبير المعاش فيه وعلى تربية الأبناء تربية قويمة. وكل ما قدمت واضح الدلالة على أن الإسلام- منذ أربعة عشر قرنا- أعطى المرأة حقوقا كثيرة تجعلها تصعد درجات في مساواتها مع الرجل، وكثير من هذه الحقوق وخاصة

حقوق التملك والاحتفاظ بشخصيتها بعد الزواج لا تزال تفقدها- في عصرنا- المرأة الغربية، مع رعاية الإسلام التامة للحياة الزوجية والعائلية وأن تسودها المودة والمحبة والرحمة والرأفة.

obeikandl.com

٣٢- الإخاء

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

الحجرات ١٠

٢- وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

التوبة ٧١

٣- مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

الفتح ٢٩

٤- يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨)

الإنسان ٧، ٨

٥- وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)

الحشر ٩

الأحاديث

١- عن أبى موسى الأشعري: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا (رواه البخاري ومسلم في كتاب الأدب).

٢- عن النعمان بن بشير: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى (رواه البخاري ومسلم في كتاب الأدب).

obeikandi.com

٣- عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فَرَّج عن مسلم كُرْبة فرَّج الله عنه بها كربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة" (رواه مسلم في كتاب الأدب روى بعضه البخاري في كتاب الإكراه).

٤- عن أنس: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان).

٥- عن أبى هريرة: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه (رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء).

والله في الآية الأولى يذكر أخوَّة المسلمين، ويجعل واجبا على كل مسلم أن يستشعرها إزاء أخيه وإخوته في الدين الحنيف. وهى أخوة تعقد بين المسلم وصاحبة حقوقا وواجبات كواجبات الأخوَّة الحقيقية بين الأشقاء وحقوقها، وكأنها تربط بين المسلم والمسلم بنسب في الدين كالنسب في الأبوة، ويوضح ذلك قول عمر بن الخطاب لامرأة شكت إليه حاجة أولادها وقالت إن زوجها شهد مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عُمْرة الحديبية، فقال عمر رضى الله عنه: "مَرْحَبًا بنسب قريب" يريد النسب في أخوة الإسلام ويراه أقرب من النسب الحقيقي، وقضى للمرأة حاجتها مطيبا خاطرها. وبحق يقول الرسول- صلى الله عليه وسلم- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، فهما بنيان واحد تشهده هذه الأخوة الوثيقة وتمسكه- مادامت- فلا يخر ولا يسقط منها شيء. ويقول الله في الآية الثانية إن المؤمنين والمؤمنات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي أن بينهما ولاية أخوة توجب الإخلاص والتعاون بينهما ويصفهم- جل شأنه- بأنهم يأمرون بالمعروف المندوب له في الشريعة من وجوده الخير وينهون عن المنكر المنهي عنه من وجهوه الشر.

والآية الثالثة تصف المسلمين بأنهم أشداء على الكفار لا يلينون لهم أي لين، كما قال تعالى. ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾. ويقول ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي أنهم يستشعرون العطف والحنو والبر والرأفة، وصور ذلك الرسول- صلى الله عليه وسلم- تصويرا رائعا في الحديث الثاني إذ قال مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر

الأعضاء وتجمعت بالسهر والسهاد والحمى والألم له. ويكثر الرسول- صلى الله عليه وسلم- من دعوة المسلم للرحمة بأخيه المسلم، ومن قوله في صحيح البخاري ومسلم: "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله" وفى صحيح البخاري: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" فقال رجل يا رسول الله أنصره إن كان مظلوما أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال "تحجزه- أو تمنعه- من الظلم فإن ذلك نصره". وكان لا يزال يوصى المسلم أن يرعى حقوق أخيه المسلم الاجتماعية، ومن ذلك قوله: "حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتِّباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس" بقولك له يرحمك الله. وفى رد السلام يقول الله عز شأنه: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾. وفى عيادة المريض يقول الرسول: "إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في جَنَا الجنة" (رواه مسلم) أي أنه يثاب ثوابا عظيما. وكان يدعو إلى اتباع الجنائز مؤازرة لأهل الميت. كما كان يدعو إلى إجابة الدعوة مهما كان الداعي فقيرا. وكان لا يزال يوصى المسلم بأن يلقى أخاه بوجه طلق وبالبشر وبالكلام اللطيف ومن قوله: "الكلمة الطيبة صدقة" (رواه البخاري ومسلم). وكان الرسول لا يزال يوثق الصلات الاجتماعية والسلوكية بين المسلمين مؤكدا أن كل عمل يؤديه المسلم لأخيه المسلم يثاب عليه، ويقول كما في الحديث الثالث: "مَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته" ويقول من فرج عنه كُرْبة أي غما من شيء نزل به فَرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. وكان يدعو دائما إلى أن يستر المسلم أي عيب يجده في أخيه ويجعل ثواب ذلك ستر الله له يوم القيامة.

والآية الرابعة تصف المسلمين بأنهم يطعمون الطعام- مع اشتهائهم له- مسكينا محتاجا ويتيما لا عائل له وأسيرا حتى لو كان مشركا يقول ابن كثير في تفسير الآية عن ابن عباس: كان الأسراء يومئذ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى. ومعروف أن الإسلام دعا دعوة واسعة في القرآن الكريم والحديث النبوي إلى الإنفاق في سبيل الله وجعل الزكاة فريضة كبرى، ودعا الأغنياء إلى هبة أموالهم للفقراء والمساكين من المسلمين تقربا إليه وزلفى، وسمىَّ ذلك قرضا حسنا وأنه يضاعفه لصاحبه أضعافا كثيرة. وبذلك شرع القرآن- ومعه السنة النبوية- العدالة الاجتماعية في الأمة الإسلامية، إذ جعلا للفقراء

والمساكين حقا معلوما في أموال الأغنياء، حقا دينيا، فالغنيّ لا يعيش لنفسه وحدها، بل يعيش أيضا لأمته، ويترابط معها ترابطا اقتصاديا كما يترابط اجتماعيا وسلوكيا.

والآية الخامسة في أخوة الأنصار للمهاجرين، وكانوا قد أسكنوهم في أول هجرتهم معهم في بيوتهم ومنحوهم من نخيلهم، ويقول الله إنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي شدة احتياج، وهو نبل في الأخلاق ذكرت فيه قصص وأخبار كثيرة عن الصحابة وتآخيهم، ومن ذلك ما يُرْوَى عن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك الذي سُحق فيه الروم أطلب ابن عم لي بين شهداء المعركة من المسلمين ومعي شيء من الماء، فإذا أنا به فقلت له أسقيك فأشار برأسه أن نعم فإذا بعكرمة بن أبى جعل يقول آه آه فأشار إليّ ابن عمى أن أنطلق بالماء إليه فجئت إليه، فقلت أسقيك فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول آه آه فأشار أن أنطلق إليه، فجئت إليه فإذا هو مات، فرجعت إلى عكرمة فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو أيضا قد مات. وهى صورة رائعة للإيثار، فكل من الثلاثة كان مثقلا بالجراح وهو في أشد الحاجة إلى الماء، ومع ذلك كان يرده إلى أخ جريح آخر يتأوه، ولم يشربه أحد منهم وماتوا جميعا، رضى الله عنهم وأرضاهم. وواضح مما قدمت كيف أن القرآن الكريم والسنة النبوية بثا في روح المسلمين أخوّة بارة في الدين الحنيف، وهى أخوّة كان يرعاها الله ويتعهدها بشهادة الحديث: «كان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» بل إنه ليحب له كما جاء في الحديث الرابع ما يحبه لنفسه. وبهذا الإخاء الصادق والأخوّة الجماعية المخلصة استطاع الصحابة أن ينشروا دينهم الحنيف وتعاليمه السمحة في إيران والعراق والشام ومصر وأن يكوِّنوا دولتهم الإسلامية في سنوات معدودة.

٣٣- المساواة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً

النساء: ١

٢- يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

الحجرات: ١٣

الأحاديث

١- قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: إن الله أذهب عنكم عَبيَّة(١) الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس: مؤمنٌ تقيٌّ أو فاجر شقيٌّ، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب (رواه الترمذي).

٢- من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم- في حجة الوداع:

أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسودَ على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى.

٣- عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمَّتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا خشية إقامة الرسول لحد السرقة عليها من يكلِّم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلَّم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال له: أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟! ثم قام فخطب فقال يا أيها الناس إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا

---

١)) عبية : تعاظم

openkanal.com

عليه الحدَّ، وايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (رواه البخاري ومسلم في كتاب الحدود).

والآية القرآنية الأولى تقول إن الله خلق الناس من نفس واحدة هي آدم وزوجها حواء، ونشر منهما رجالا كثيرا ونساء في أقطار العالم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم. والآية تدعو الناس جميعا إلى أن يؤدوا لله حق خلقه لهم وتناسلهم فيتقوه ويؤمنوا بالله ورسوله، ويتبعوه. وإن اشتراك الناس في أصل واحد وأب واحد لحريّ أن يجعلهم يحسُّون أنهم جميعا سواء في الأصل والنسب، فلا شريف ومشروف ولا سيد ومسود، فتلك مشاعر جاهلية عفّى عليها الدين الحنيف، ولذلك يقول الرسول- صلى الله عليه وسلم- حديثه الأول: أن الله محا عن المسلمين الزهو بالآباء والفخر بالأنساب، وما هم إلا فريقان: فريق مسلم تقي يصدع بأوامر الله ونواهيه وفريق فاجر شقي كفر بخالقه. ويعلل الرسول لهذا التسوية بين الناس جميعا فأبوهم واحد، وهو آدم، وآدم خلقه الله من تراب، فلا داعي لصلف ولا لكبر ولا لشعور أحد باستعلاء على أحد.

والآية الثانية تحضّ على المساواة بين أفراد النوع الإنساني في جميع البقاع، فهم جميعا لأب واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء، ويقول الله إنه جعلكم شعوبا وقبائل، ليتعارفوا لا ليتنافروا ولا ليتفاخروا ولا ليتطاول بعضهم على بعض، وإنما ليعرف كل شخص فضل ربه ونعمه عليه ويعبده حق عبادته ويتقيه، فلا تفاضل بين شعب وشعب وقبيلة وقبيلة وفرد وفرد إلا بفضيلة جديدة هي الإيمان بالله ورسوله، وتقوى الله حق تقواه، فهي العنوان الإسلامي الجديد للتفاضل وأن الأفضل عند الله والأكرم والأشرف هو الأتقى المتصف بهذا الكمال الرباني. ويجعلها الرسول في خطبته بحجة الوداع مدار الفضل بين أفراد المسلمين من كل الأجناس والألوان، إذ يعلن لأمته أنه لا فضل فيها لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى. وبذلك جعل الإسلام المساواة بين الناس جميعا قانونا إسلاميا خالدًا، فالجميع متساوون سواء أكانوا عربا أو غير عرب، وسواء أكانوا سودا (حتى لو كانوا زنوجا) أو غير سود، وسواء أكانوا حمرا أي بيضا أو غير بيض. وهذا هو التفسير الحقيقي لقيام الإمبراطورية الإسلامية الضخمة سريعا من الهند إلى المحيط الأطلنطي، إذ كان المسلم- في كل تلك الأنحاء- يشعر بمساواة حقيقية بينه وبين جميع الناس في كل مكان.

والحديث الثالث تطبيق عملي لحدود الله على الشريف وغير الشريف دون أي تمييز أو أي مراعاة لشرف أو لمكانة عشيرة أو أسرة، فقد سرقت امرأة قرشية من عشيرة بنى مخزوم ذوى المكانة الرفيعة في قريش، وشعر أهلها وغير قليل من قريش بهمٍّ لا يماثله هم إن طبَّق الرسول- صلى الله عليه وسلم- عليها حد الشريعة وقطع يدها وعاشت مقطوعة اليد. فوسَّطوا له أسامة بن زيد أملا في أن لا يوقع عليها الحد. ولم يكد الرسول يسمع منه وساطته في تلك المرأة حتى بادره منكرا عليه شفاعته قائلا: أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام فخطب في أهل المدينة قائلا إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا يميِّزون في حد السرقة وما يماثله، فإن اقترف السرقة شريف لم يقيموا حدَّ الله عليه، وإن اقترفها ضعيف أقاموا عليه الحدَّ، ويقسم لو أن ابنته السيدة فاطمة رضى الله عنها سرقت- معاذ الله- لأقام عليها الحد وقطع يدها. إن عهد التمييز بين الشرفاء وغير الشرفاء انتهى في الشريعة الإسلامية إلى غير رجعة، وحلَّ مكانه عهد مساواة بين المسلم وأخيه المسلم في كل شئ: في الحدود وغير الحدود.

وكان الرسول- صلى الله عليه وسلم- يطبق هذه المساواة على نفسه بينه وبين المسلمين تطبيقا دقيقا، من ذلك أنه كان ينقل اللِّبِن المضروب من الحجارة في بناء أول مسجد بالمدينة، ومن ذلك أنه في غزوة الخندق المشهورة شارك أصحابه في حفر الخندق حول المدينة حتى يمنع جيش قريش من دخولها. وشاع في المدينة ذات ليلة أنه يُسْمَعُ صوت لغارة المشركين، فركب فرسا عاريا لأبى طلحة ليس عليه سرج، وتقلد سيفا، وسبق الناس إلى الصوت، وأوغل نحو الصوت، ولم يجد أحد، فعاد يطمئن الناس ويقول: لن تراعوا لن تراعوا. ويروى أنه كان في سفر مع جماعة من أصحابه، فأمرهم بإعداد شاة للطعام، فقال صحابي: يا رسول الله علىَّ ذبحها، وقال ثان: يا رسول الله علىَّ سَلْخُها، وقال ثالث: يا رسول الله علىَّ طبخها، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: وعلىَّ جمع الحطب والوقود، فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل، فقال صلى الله عليه وسلم: قد علمت أنكم تكفوني ولكن أكره أن أتميَّز عليكم. وبلغ من إحساس الرسول صلى الله عليه وسلم بالمساواة بينه وبين الناس أنه كان يشارك أهل بيته وخدمه في العمل، فكان يخيط ثوبه، ويخصف نَعْله، ويحلب شاته، ويعقل بعيره، ويكنس بينه، ويخدم نفسه، ويأكل مع خادمه.

وبلغ من إحساس الرسول صلى الله عليه وسلم بالمساواة بينه وبين الناس وعمقها في فؤاده أنه كان يقص من نفسه لأصحابه، ومما يروى من ذلك أنه كان يقسم شيئا فأكبَّ عليه رجل، فغمزه- ليدفعه عنه- بِعُرْجون (١) نخل كان معه. فصاح الرجل، فقال الرسول- صلى الله عليه وسلم-: تعال فاستقِدْ، طالبا إليه أن يقتصَّ لنفسه منه هذه الغمزة، فابتسم الرجل، وقال: عفوت يا رسول الله. ويروى أن عمر بن الخطاب خطب في خلافته، فقال: ألا من ظلمه أميره فليرفع إليّ ذلك أُقيده منه، فقام عمر بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين لئن أدَّب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصَّنه منه ؟ قال عمر: كيف لا أقصُّه منه، وقد رأيت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقصُّ من نفسه. وفى كل ما ذكرت ما يصوِّر كيف أن القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الرسول، كل ذلك ثبَّت مبدأ المساواة بين أفراد المسلمين منذ أربعة عشر قرنا بينما لا تزال الولايات المتحدة إلى اليوم تتعثَّر في هذا المبدأ الإنساني القويم بين سكانها من السود والبيض.

---

١)) العرجون : ما يحمل الثمر ، والمراد طرفه.

obeikandl.com

٣٤- العمـل

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

البقرة: ٢٥

٢- وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)

الأعراف: ١٠

٣- نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً

الزخرف: ٣٢

٤- فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهَّ وَاذْكُرُوا اللهَّ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)

الجمعة: ١٠

٥- إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً

الكهف:٧

الأحاديث

١- عن المقدم بن معد يكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أكل أحد طعاما قَطّ خيرا من أن يأكل من عمل يده (رواه البخاري في كتاب البيوع).

٢- وقال صلى الله عليه وسلم: إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس (روته كتب التفسير).

٣- عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن يأخذ أحدكم أحْبُله، ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه، خيرٌ من أن يسأل الناس: أعطوه أو منعوه (رواه البخاري في كتاب الزكاة وكتاب البيوع).

٤- عن جابر: ما من مسلم يغرس غَرْسا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السَّبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُه (يأخذ منه) أحد إلا كان له صدقة (رواه مسلم في كتاب المساقاة).

والله يقول لرسوله في الآية الأولى أخْبرْ خبرا سارا الذين آمنوا بشريعتك وعملوا الصالحات جمع صالحة أي الأعمال الحسنة من العبادات وأوامر شريعتك ونواهيها وعمل كل ما فيه خير، أخبرهم بأن الله أعدَّ لهم في الآخرة نعيما دائما: جنات تجرى خلالها مياه الأنهار، فتضفي عليها بهجة لا تماثلها بهجة. ودائما في القرآن الكريم لا يذكر المؤمنون إلا ومعهم العمل الصالح، وكأن هذا العمل هو الإيمان نفسه، فلا إيمان بدون عمل صالح، وبالمثل لا جنة بدون عمل من عبادة الله وتوحيده وأداء فروضه العملية من الصلاة والصيام والزكاة والحج.

والإسلام- بذلك- دين يقوم على العمل في العبادة وكسب العيش. ويلفت الله- جَلَّ شأنه- مرارًا وتكرارا، كما في الآية الثانية، إلى أنه مكَّن الإنسان وجعله قادرا على التصرف في الأرض بشقها وإلقاء البذور فيها ورعايتها حتى تؤتى ثمارها وأكلها، ولم يمكِّنه منها برا فقط بل مكنه منها أيضا بحرا وما تحمل السفن فيه من الناس ومن عروض التجارة. ولم يمكن الله الإنسان في الأرض من مختلف الأعمال بها فقط، فقد اتسع أيضا في الأرض بمجتمعات المدن، مما آذن بكثرة الأعمال فيها، وبالتالي بكثرة المعايش، إذ يصبح لكل شخص فيها عمله: وبالتالي معيشته وما يجنيه من كسب ينفق منه على مسكنه وملبسه ومأكله أو طعامه وشرابه.

ويقول الله في الآية الثالثة إنه قسم بين الناس معيشتهم وقدَّرها ببالغ حكمته إذ جعل منهم أغنياء وفقراء وزراعا وصناعا وتجارا، وتختلف الزراعات والصناعات والتجارات باختلاف من يزاولونها اختلافا يقوم عليه نظام الحياة، فكلٌّ وما يرغب فيه أو يهواه، فهذا بستاني وذاك مزارع أو فلاح، وهذا صانع سيارات وذاك صانع أفلام إلى غير ذلك من مختلف الصناعات، وهذا تاجر

أقمشة وذاك تاجر خردوات أو غير ذلك من أنواع التجارات، وهذا عامل بناء وذاك عامل في الميناء إلى ما لا يحصى من أنواع الأعمال. ويقول- جلَّ وعزَّ- إنه رفع بعض الناس فوق بعض درجات وجعل بعضهم مسخرا لبعض ومحتاجا إليه، ومن هنا قالوا إن الإنسان مدني أي أن أفراده إلى أن يتعاونوا جميعا في شئون حياتهم، مما جعلهم يتعارفون وينتظمون- من أجل حاجة بعضهم إلى بعض- في جماعات صغرى، فتكون القبيلة وكبرى فتكون المدينة وجماعات أكبر فيكون الشعب أو تكون الأمة.

وإذا كانت حياة الأمة تقوم على عمل مقسوم لكل فرد حسب رغبته أو هواه فإن الإسلام وثَّق هذا العمل إذ جعله فرضا على كل مسلم في أداء صلاته وزكاته وصيامه وحجه، ويأمر الله المسلمين- بعد أداء صلاتهم- أن ينتشروا في الأرض برا وبحرا كما في الآية الرابعة ابتغاء فضل الله وما يعود به عليهم من الكسب لمعايشهم. ويدعو الرسول دعوى حارة إلى الحض على السعي في طلب الرزق حتى لا يكون المسلم عالة على غيره. وهو- في الحديث الأول- يجعل طعامه من عمل يده أمتع وألذ من أي طعام يطعمه من عمل غيره، إذ يأكل مما كسبته يداه لا مما كسبته أيدي آخرين مهما كانوا أقرباءه أو أصدقاءه. ويهتف الرسول في المسلمين: إن الله يجب أن يحترف المسلم مهنة- كما في الحديث الثاني-حتى تغنيه وتكفيه عن سؤال الناس. ويعد الرسول سؤالهم مذلة ما بعدها مذلة، حتى ليقول في أحاديث متعددة له: اليد العليا خير من اليد السفلى، وهو ما جعل الإسلام يفرض الزكاة على الأغنياء لعون الفقراء، وعدَّ الله الصدقة على المحتاجين قرضا حسنا له. وكأن الرسول كان لا يريد أن يرى بين أصحابه سائلا يتكفَّف الناس حتى ليقول حديثه الثالث الذي كرَّره مرارا قائلا: لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، ويبيعها، ويقتات بمثمنها خير له من أن يسأل أحدا من الناس فيعطيه أو يمنعه. ومرارا وتكرارا يوصي الرسول صلى الله عليه وسلم المسلم بالعمل لمنفعة نفسه ومنفعة المسلمين، ومن ذلك قوله في الحديث الرابع: ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة.. حتى ما يأكله سارق أو حيوان أو طير.

وكما كان يوجب الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه العمل كان يمقت في الشخص البطالة والقعود عن العمل وعن السعي على عياله: ومن قوله: "مَنْ طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسالة وسعيا على عياله لقي الله ووجه كالقمر ليلة البدر". وتبع الرسولَ الخلفاء الراشدون

فكانوا ينهون بشدة عن البطالة ويدعون من حولهم إلى العمل على كسب أرزاقهم واشتهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوله: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني فقد علمتهم أنَّ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشدد في الرفق بالعمال وأداء أجورهم المجزية فلا تُبْخَسنُ ولا تضيَّع عليهم، حتى لو ترك عامل العمل ولم يأخذ أجره دُفع إليه دون أي نقص. ومرَّ بنا عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم حكى قصة ثلاثة رجال صالحين باتوا في غار أو كهف فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، وبدأ بارٌّ بأبوية فانزاحت قليلا وتلاه عفيف عفة متناهية، فانزاحت شيئا غير أنهم لا يستطيعون الخروج، فدعا الثالث ربَّه- وهو مقصدنا من الحديث- قائلا: اللهم استأجرت أجَراء، وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الأجر الذي له وذهب، فَثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال: فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله أَدِّ إليَّ أجرى، فقلت له: كل ما ترى من الإبل والبقر والغنم والرقيق من أجرك، فأخذه وابتاعه ولم يترك منه شيئا، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون (روى الحديث البخاري ومسلم).

ويذكر الله في الآية الخامسة أنه بث في الموجودات على سطح الأرض زينة وجمالا، وهو يشير إلى ذلك مرارا في القرآن الكريم، من مثل قوله في سورة النحل عن الأنعام ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ويقول مرارا عن النجوم إنها تزين السماء. وكل ذلك ليغذى وينمىِّ النزعة الجمالة عند المسلمين، وليثبت فيهم المحبة لا للعمل فقط بل لإحسانه وإتقانه.

٣٥- الصدقــة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- (٢٦٢) ۞ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

البقرة: ٢٦٣

٢- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

البقرة: ٢٦٧

٣- إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ

البقرة: ٢٧١

٤- ۞إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦٠)

التوبة: ٦٠

الأحاديث

١- عن أبى ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، منهم: المنَّان بما أعطى (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٢- عن أبى هريرة سال رجل الرسول صلى الله عليه وسلم: أي الصدقة أعظم أجرا ؟ فأجابه أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، وممن ذكره بين السبعة: رجل تصدِّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن حنبل في مسنده).

٤- عن أبى هريرة قال سول الله صلى الله عليه وسلم: الساعي على الأرْمَلة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم لا يفطر (رواه كل من البخاري ومسلم في كتاب الأدب ورواه الترمذي في البر والنسائي في الزكاة وابن ماجه في التجارات).

بيَّن الله- تبارك اسمه- قبل الآية الأولى جزاء المنفقين لأموالهم في تجهيز الجيش المجاهد في سبيل الله دون مَنٍّ بما أنفقوا ولا أذى للمجاهدين، إذ لا يريدون بما أنفقوا سوى نصر الدين الحنيف، ويعدهم الله أن يضاعف جزاءهم على ما بذلوه أضعافا مضاعفة لأموالهم، كحبة بُدرت في أرض خصبة ونالها غيث فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. وأتبع الله ذلك بمن ينفقون أموالهم في الصدقات على الفقراء والمساكين، واستهلَّ حثه لهم على الصدقات بأن يمتنعوا امتناعا باتًّا عن إيذاء من يعطونهم الصدقات بمثل التطاول عليهم بأنهم يطعمونهم أو لولاهم لجاعوا أو ينبغي عليهم أن يشكروهم ونحو ذلك من ضروب المن التي تؤدى من يأخذون الصدقة، بل إن الله يقول في مفتتح هذه الآية ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي الكلمة الطيبة ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ ﴾ ملوثة أو مسممة بالأذى. والله في ذلك يرفق بالمصدَّق عليهم ويلطف أعظم لطف ورفق حتى لا يؤذى شعورهم أي إيذاء من قريب أو من بعيد، وكأن هذا الإيذاء موجه إليه، ولذلك يقول إنه (غنى) عن هذه الصفة المسممة (حليم) لا يؤذى أصحابها في الدنيا. أما في الآخرة فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم مصورا في الحديث الأول غضب الله حينئذ على من يتبع صدقته منا وأذى إنه لن يكلمه يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه مثنيا عليه، وله عذاب أليم. ويشبِّه الله مَنْ يتبع صدقته بالمن والأذى بالكافر الذي يتصدق ببعض ماله طالبا للمراءاة والسمعة عند الناس لا ابتغاء وجه الله.

والآية الثانية في الصدقة أيضا والله- جَلَّ شأنه- يأمر عباده المؤمنين أن تكون صدقاتهم من خِيار ما كسبوا في التجارة من الأموال ومن خيار الثمار والزروع التي أخرجها الله لهم من الأرض، وأن يتجنبوا أن تكون من خبيث أموالهم وزروعهم وثمارها ورديئها، يقول الله: ﴿ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ

إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾، أي أنكم لو أعطيتم هذا الخبيث لأبيتموه إلا أن تتغاضوا عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي غنى عن صدقاتكم الرديئة أو الخبيثة التي لا ترضونها لأنفسكم، ولذلك ينبغي إذا كانت الصدقة طعاما أن تكون من نفس طعام المتصدِّق وأسرته. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينى يحث أصحابه على الصدقة، وكان يقول كل معروف صدقة وإنها وقاءٌ من النار حتى لو كانت بنصف تمرة. وعن السيدة عائشة أنها قالت له: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأعطيتها ثلاث تمرات فأعطيت كل بنت تمرة، ورفعة تمرة تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها. فقال: إن الله قد أوجب لها بالتمرة الجنة وأعتقها من النار. وسأله رجل في الحديث الثاني أي الصدقة أعظم أجرا ؟ فقال أن تتصدق بها وأنت صحيح شحيح بالمال تخشى الفقر لقلة مالك ومع ذلك تؤثر به الفقير.

والآية الثالثة تدفع وهما أن يظن المتصدق أنه لا يجوز له إظهار صدقته والإعلان عنها خشية الرياء، فجاءت تجيزه وتحمده، مع تفضيل صدقة السر عليها حفظا وصيانة لماء وجه الفقير، واختلف الفقهاء هل الإخفاء يعم فريضة الزكاة مع صدقة التطوع أو هو خاص بصدقة التطوع؟. وعلى كل حال يحسن فيهما الإخفاء، حتى لا يطلع عليهما غير مَنْ يأخذهما حفاظا على شعوره، وحتى لا يحسّ أنه أصابه فيهما أي خدش، ولذلك يؤثر القرآن الكريم أن يخفى المتصدق صدقته، حتى لا يعلم بها- كما في الحديث الثالث- أحد مهما كان قريبا منه، وحتى لا تعلم شماله ما أنفقت وتصدقت به يمينه.

والآية الرابعة في مصارف الصدقات، وهى فيها ثمانية: الفقير وهو من لا يملك ما يكفيه لعيشه، والمسكين وهو شديد الفقر حتى السؤال فيه والضراعة، وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس المسكين الذي يطوف على الناس تردُّه اللُّقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يا رسول الله ؟ قال الذي لا يجد غِنىً يغنيه، ولا يُفْطَنُ له، فيُتَصَدَّق عليه ولا يسأل الناس شيئًا. والعامل على الصدقات وهو الساعي في جمعها، وكانت الدولة تعيِّنه لهذه المهمة في صدر الإسلام والعصر الأموي، وتعطيه من مال الصدقات حظا أو قسطا،ولم يعد هذا المصرف قائما الآن. ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ﴾ وهم بعض سادات قريش والعرب أمر الله رسوله أن يتألفهم بعد موقعة حُنَين، حتى لا يكونوا أعداء للإسلام ورسوله، فأعطى كلا منهم بعد قسمة الغنائم في

حنين، مائة بعير. ولما دخل الناس في دين الله أفواجا وبدأت انتصارات العرب على فارس والدولة البيزنطية أشار عمر رضى الله عنه على خليفة المسلمين أبى بكر الصديق- رضى الله عنه- بإلغاء هذا المصرف من مصارف الزكاة، إذ أغنى الله الإسلام وأعزَّه عن تألف هؤلاء السادة، فوافقه على إلغائه. ﴿وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أي في تحرير العبيد، وهو مصرف لم يعد قائما في ديار الإسلام. وبذلك تكون ثلاثة مصارف من الثمانية لم يعد لها وجود في عصرنا ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ أي المدينين ممن يعجزون عن أداء ما عليهم من الديون، فيعطَوْن من الصدقات رحمة بهم ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي في الجهاد ضد أعداء الإسلام وفيما يحتاجه المجاهد من الأسلحة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي الطريق، وهو الغريب المسافر المحتاج للطعام والمأوى. وللمتصدق أن يدفع صدقته إلى أي مصرف من المصارف الخمسة المتبقية. وفى نهاية الآية أن هذا البيان لمصارف الصدقات ﴿فَرِيضَةً﴾ مقدرة من الله العليم بمصالح عباده الحكيم في أقواله وأفعاله وتشريعاته. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ما يزال يحث أصحابه على مد يد العون للمحتاجين من الأرامل والرجال من ذلك قوله في الحديث الرابع إن من يعنى بالاكتساب للأرملة والمسكين لسد حاجتها ثوابه كثواب المجاهد في سبيل الله وكثواب المصلى ليل نهار وكثواب الصائم المدين لصيامه. ويقول في حديث آخر من عال جاريتين أي قدَّم لفتاتين ما تحتاجانه من طعام وغذاء ومسكن حتى تبلغا ويظل لهما حافظا صائنا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضمَّ أصابعه أي مصاحبا لي.

٣٦- الأمانة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ

البقـرة ٢٨٣

٢- ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا

النساء ٥٨

٣- أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)

الأعراف ٦٨

٤- هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)

المؤمنون ٨

الأحاديث

١- قال صلى الله عليه وسلم: أَدَّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك (رواه ابن حنبل في مسنده والترمذي وأبو داود).

٢- عن سمرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: على اليد ما أخذته حتى تؤديه (رواه ابن حنبل وسنن أبى داود والترمذي).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من آيات المنافق (أي علاماته) أنه إذا أؤتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٤- عن حذيفة بن اليمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن الأمانة نزلت في جَذْر(١) قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال:

---

١)) جذر : أصل.

obeikandl.com

ينام الرجل النَّوْمَةَ فتُقْبَضُ الأمانة من قلبه.. إلى أن قال: فيُقال إن في بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبَّة من خرْدَلٍ (١) من إيمان. فذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الإيمانَ في موضع الأمانة (رواه البخاري في الرقاق ومسلم في الإيمان).

التعبير القرآني الأول في آية الدَّيْن بآخر سورة البقرة، إذ يقول الله: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ أي إنْ أمن الدائن صاحبه المدين ووثق بأمانته، فلم يطالبه بكتابة ولا بإشهاد فإنه يجب على المدين الذي اؤتمن أن يؤدى الدين في موعده المضروب دون أن ينقص منه أي شيء. والأمانة يراد بها الشيء من دين وغير دين المؤمَّن عليه بأن يؤدَّى في ميقات معين. ويأمر الله بهذا الأداء وكأنه يحذر المدين من عدم الوفاء به، لأنه عهد وثيق بينه وبين الدائن. وينبغي- لذلك- أن يوفِّي به وأن يرد الأمانة إلى صاحبها شاكرا في موعدها المحدد. وهذا من حيث التأخير في أداء الأمانة، أما إن جحدها وقال للدائن ليس لك عندي شيء فإنه حينئذ- يكون قد خان الأمانة، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول يجب أن تؤدى الأمانة إلى صاحبها، ولا تقابل السيئة بالسيئة حتى لو كان خانك فلا تخنه، إذ خيانة الأمانة من أعظم الذنوب والآثام.

والله في الآية الثانية يأمر المسلمين أمرا عاما بأداء الأمانات إلى أصحابها، فمن ائتمن شخصا على شيء وأودعه عنده ليحفظه له إلى حين طلبه منه يجب أن يؤديه له دون توان أو تأخير. وذكر الواحدي في كتابه: "أسباب النزول" أن السبب في نزول هذه الآية- وكانت قد نزلت يوم فتح مكة- أن سِدانة الكعبة وخدمتها كانت في الجاهلية لبنى عبد الدار القرشيين، وطلب الرسول من أحد أفرادها وهو عثمان بن طلحة حاجبها- فيما يقال، وكان قد أسلم وهاجر- أن يعطيه مفتاح الكعبة، فأعطاه له وفُتحت له فدخلها، وخرج والمفتاح بيده، فتطلع إليه بعض بنى هاشم لتكون سدانة الكعبة فيهم، فدعا رسول الله عثمان بن طلحة، وأعطاه المفتاح، وقال لعثمان: خذوها خالدة تالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم، ونزل عثمان عنها لابن عمه شيبة، فبقيت سدانة الكعبة في ذريته، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾. والأمر

---

١)) الخردل : حب صغير من توابل الطعام.

بأداء الأمانات في الآية يشمل الدين عند المدين فهو أمانة عنده كما يشمل الرهن الذي يتركه المدين عند الدائن. وعادة يكون الرهن أغلى قيمة من الدين الذي رهن من أجله. والله كما يأمر المدين أن يؤدى للدائن دينه دون بطء أو تراخ يأمر الدائن أن يؤدى الرهن للمدين ولا ينكره ولا ينقص منه أي شئ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا عاما: على اليد أي التي تسلمت الأمانة حفظ ما أخذت حتى تؤديه تاما غير منقوص.

والآية الثالثة من خطاب هود رسول عادة إلى قومه، وقد نعتوه بالسفاهة والكذب فقال لهم إني إنما أبلغكم رسالات ربى إليكم، فهو تكليف منه ولن أتراخى في إبلاغه إليكم حتى تعبدوا الله ولا تشركوا بعبادته أي شئ، ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ مريد لكم كل خير ﴿ أَمِينٌ ﴾ أي متصف بالأمانة التي تلزمني بأداء حقوقكم وأن أعمل كل ما فيه خير لكم، وإلا كنت خائنا لكم لا أرعى ما يجب لكم ولا أوفيكم حقوقكم. وفى تعظيم الأمانة والمؤدين لها وتقبيح الخيانة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث الثالث عن المنافق الآثم إثما عظيما إن من علاماته الدالة عليه والتي لا تتخلف أنه إذا أُعْطِي أمانةً أنكرها وجحدها وخان من أعطاها له فيها خيانة كبرى لا تغتفر له، وإن صام وصلَّى وزعم أنه مسلم كما يقول الرسول، فهو ليس مسلما بحق.

وينعت الله المؤمنين في الآية الرابعة بأنهم راعون وحافظون لأماناتهم وعهدهم يؤدون دائما حقوقها أداء مخلصا صادقا. والوصف بالأمانة من أهم أوصاف المسلمين، لأن المسلم لا يأكل حقا لأحد، فضلا عن أنه لا يأكل أمانة لشخص إذ يراها نارًا تقطِّع أمعاء آكلها في الدنيا ويصلاها في الآخرة: جحيما حامية. ويصور الرسول شدة الأمانة على الناس وأنها قد تصعب على كثيرين من الناس في حديثه الرابع، فيقول إن الأمانة نزلت في أصل قلوب الرجال، فإن الله أودعها في فطرتهم، ثم نزل القرآن فأكدها كما في الآيات التي استشهدنا بها ثم جاءت السنة النبوية فأكدتها كما في الأحاديث المذكورة. ويقول صلى الله عليه وسلم ثم أخذت ترفع من العالم، فينام الرجل عنها، فتقْبض من قلبه لسوء فعله إزاءها،وتقبض من قلوب كثيرين مثله.. حتى يقال لندرة الأمناء ندرة شديدة: ظهر في بنى فلان رجل أمين، كأن ذلك قد أصبح ميئوسا منه، فيقال تنويها به: ما أجلده على العمل، ما أظرفه في الحديث، ما أعقله في الرأي. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

مع ما قيل عن هذا الرجل وعن أمانته: ما في قلبه مثقال حبَّة من خَرْدَلٍ من إيمان فضلا عن الأمانة التي هي من شعبه.

obeikandl.com

٣٧- الوفاء بالعهد

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود

المائـدة ١

٢- الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِّ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)

الرعـد ٢٠

٣- وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِّ إِذَا عَاهَدْتُمْ

النحـل ٩١

٤- وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤)

الإسراء ٣٤

الأحاديث

١- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آية المنافق ثلاث، وعَدَّ منها أنه إذا وعد أخلف (رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان).

٢- عن ابن عمر وابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم: لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال هذه غَدرة فلان (رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير).

٣- عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ألا ولا غادر أعظم من أمير عامَّة (رواه مسلم في كتاب الجهاد).

٤- وفى اللسان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كرم العهد من الإيمان (رواه ابن منظور).

obeikandl.com

والله- عز شأنه- يطلب إلى المؤمنين في الآية الأولى الوفاء بالعقود، والعقود جمع عقد، وهو مصدر سُمِّي به ما يعقد ثم أطلق على الالتزام به من جانبين. وهى في الآية عامة، فتشمل العقود التي يعقدها المؤمنون بعضهم على بعض كعقود المعاملات في البيع والشراء وغيرها من مثل الإيجار للمتنازل والحقول ومثل عقد الزواج. وكل هذه العقود تحتاج إلى إيجاب وقبول، ولعلها المقصودة بالحديث الأول للرسول، فالمسلك إذا تعهد لأخيه المسلم بعهد كان وعدا عليه الوفاء به فإن لم يف به كان ناقص الإيمان. وجعل الرسول ذلك علامة نفاق فيه، بل جعله غادرا كما في الحديثين الثاني والثالث وقال إن لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ويقال هذه غدرة فلان. وتشمل العقود فرائض الشريعة الإسلامية التي ألزم الله بها المؤمنين، كما تشمل المصالحات والمهادنات، فكل هذه العقود وما يماثلها يطلب الله من المؤمنين الوفاء بها، وفى مقدمتهم حكامهم وأمراؤهم الذين يلون أمورهم، كما يشير إلى ذلك الحديث الثالث. ويصف الله في الآية أولى الألباب والعقول النيرة من المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله الذي بيَّنه في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ والآية تذكر أن الله أخذ العهد على ذرية بنى آدم جميعا بالإقرار بربوبيته. ويمكن أن يكون ذلك تمثيلا لما جعل الله في فطرة الإنسان عند تكوينها من الإيمان بوحدانيته وأنه إله الكون وخالقه. والآية الثانية تقول عن المؤمنين إنهم يوفون بالعهد أي أنهم يستجيبون لما أودع الله في فطرتهم السليمة من الإيمان بوحدانيته، والله يثنى عليهم بوفائهم لهذا العهد الرَّبّاني وأنهم لم ينقضوا الميثاق أي العهد الذي أخذه عليهم بما أودع في فطرتهم من التوحيد.

ويذكر الله في الآية الثالثة عهده المؤمنين، وهو يريد ما كان يبايعهم عليه الرسول من الإيمان بوحدانية الله والشريعة التي أنزلها عليه ونصرته، وتذكر كتب السيرة النبوية بيعة العقبة الأولى حين قدم من المدينة في موسم الحج ستة أنفر والتقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ودخلوا في دينه وفى العام المقبل جاء من المدينة اثنا عشر شخصا وبايعوه على أن لا يشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتي ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف. وأوفد الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام ويفقههم في الدين. واستدار

العام، فوفد على الرسول من المدينة ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، وكانوا جميعا مسلمين، وبايعوه بيعة العقبة الثالثة قائلين: بايعنا على السمع والطاعة في عُسرِنا ويُسرِنا ومَنْشَطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم. وإنما أطلت في عرض بيعات العقبة ليتضح العهد الذي كان يأخذه الرسول على من يعتنق الإسلام والذي نسبه الله إليه لأنهم دخلوا في دينه كما قال في سورة الفتح: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾.

ويقول الله- جلَّ شأنه- في الآية الرابعة: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ والعهد في الآية عام، فهو يشمل عهد الله الذي أودعه فطرة البشر أن لا يعبدوا إلها سواه، والعهد الذي أخذه على الأمم بأخذه على رسله أنه إن بُعث فيهم رسول مصدق لما معهم يؤمنون به كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي (١) قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾. والمقصود من هذا العهد على النبيين آخذ العهد على أممهم، وأيضا البيعة للرسول بتوحيد الله واتباع دينه ونصرته، وقد عدَّها الله عهدا له كما مرَّ. ويشمل العهد في الآية فرائض الشريعة الإسلامية التي عهد الله بها للمسلمين وفرضها عليهم، كما يشمل جميع المصالحات بين الأفراد والأمم وجميع ما ينعقد بين الدولة الإسلامية والدول من معاهدات، ففي كل تلك العهود ينبغي الوفاء كل الوفاء بالتزاماتها.

ويقول الرسول في الحديث الرابع: إن كرم العهد من الإيمان وهو يريد العهد بين الناس في العلاقات كعلاقة الزوجة بزوجها والآباء بالأبناء والإخوة بالأخوات والأقارب والأصهار بعضهم ببعض. ومراد الرسول صلى الله عليه وسلم بكرم العهد المودة والرحمة بين كل من ذكرتهم، فهم يتوادون ويتراحمون أو قل إنه ينبغي- كما أراد الرسول- أن يتراحموا ويتوادوا ويأنس بعضهم ببعض، بل إن الرسول يريد أن يكون ذلك عاما بين المسلمين كما مر بنا في الحديث عن الإخاء بين المسلمين وأنه ينبغي أن يلقى المسلم أخاه بالمودة والبشر واللطف.

---

١)) الإصر: الميثاق.

٣٨- الحق

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)

الإسراء ٨١

٢- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

الأنعام ٧٣

٣- فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)

المؤمنون ١١٦

٤- وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

الرعد ١

الأحاديث

١- عن طارق بن شهاب البجليّ أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أي الجهاد أفضل ؟ قال النبي: كلمة حقٍّ عند سلطان جائر (رواه النسائي في بيعه).

٢- عن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لتأخذُنَّ على يد الظالم، ولَتَأْطِرُنَّه[١] على الحق أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّه[٢] على الحق قَصْرًا (رواه أبو داود في الملاحم).

٣- عن معاذ بن جبل قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاذ هل تَدرى ما حقُّ الله على عباده؟ وما حقُّ العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن

---

١)) لتأطرنه أطرا : لتردنه ردا.

٢)) لتقصرنّه قصرا : لتحبسُنَّه حبسا.

obeikandl.com

يعبدوه ولا يُشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذِّب مَن لا يشرك به شيئا (رواه البخاري في التوحيد ومسلم في الإيمان).

٤- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آية الميراث بسورة النساء: إن الله قد أعطى كل ذي حق حقَّه (رواه ابن كثير وقال ثبت في الحديث الصحيح).

يقول الله- تقدَّس اسمه- في الآية الأولى (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ) أي جاءت الرسالة التي تحق الحقَّ الثابت الذي لا يرقى إليه شك وتبطل الباطل نقيضه، وتجعله يضمحل، ولا يبقى له أثر. ودارت كلمة الحق في القرآن عشرات المرات، بمعان متقاربة، فقد تكون بمعنى اليقين مثل: ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ وقد تكون بمعنى الصدق مثل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ وقد تكون بمعنى العدل مثل: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾. وقد تكون بمعنى الحظ والنصيب مثل: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ.لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾. وقد تكون بمعنى أحد الحقوق من المنافع التي يستحقها شخص على شخص من مال أو عقار كقوله تعالى في سورة البقرة عن كتابة الدَّيْن: ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾. ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما تعبد من دون الله، فأمر بكبِّها على وجوهها، وجعل يقول: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فقد استقر وثبت الحق الذي دعا إليه،وزهق الباطل وانقضى ووطئته الأقدام.

ويقول ربُّ العزة في الآية الثانية إنه خلق السماوات والأرض وجميع ما فيهما من الأشياء والموجودات بالحق أي بالحكمة، وكما يقول في آية سورة ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ فالكون لم يخلق عبثا ولا لعبا، إنما خلق لحكمة إلهية أرادها مبدعه، وقد أودع فيه نظما تصونه، وتحفظ الأرض وكل ما عليها من البشر ومن النباتات والأشجار والجبال والأنهار والبحار والمحيطات، كما تحفظ السماء وما فيها من سُدم وكواكب ونجوم وتسخِّرها له حسب مشيئته وحكته. ويصور الله ما أودع في الشمس والقمر من نظام في حركتهما الدائبة بسورة يس قائلا: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾. فالشمس ستظل جارية في الكون حتى نهاية أمد الدنيا، والقمر سيظل مثلها يجرى في السماء، وتختلف صورته وهيئته من ليلة إلى ليلة حتى يصبح في المنظر كعرجون النَّخل، وهو أصل

عِذْقه الأصفر الشبيه بالهلال. ولكل من الشمس والقمر مداره وما يتبعه من نهار وليل. وهي مسيرة قدَّرها خالق حكيم أدق تقدير، وكأنما وزنت بميزان في غاية الدقة، لا تفوته ذرة مهما صغر حجمها وتضاءل. وهو ميزان يدل على أن وراءه إلها قادرا حكيما لا يخلق شيئا إلا منحه ما يحفظ له حياته. وإذا كان قد أعطى الإنسان العقل الذي ظل يرتقي به حتى كوَّن حضارته ومدنيته فإنه أعطى الحيوانات الإلهام الذي تعرف به هبوب العواصف ونشوب الزلازل قبل حدوثها، وأعطى الطير والأسماك والزواحف نفس الإلهام، وتلك العنكبوت تبني بيتها بصورة عجيبة ومثلها النَّحْل.

ويسمى الله نفسه في الآية الثالثة باسم الحق، وتكرر ذلك في الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى عن الخلق وبعثهم يوم القيامة ليحكم بينهم كما جاء في سورة الأنعام: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾. وتكررت هذه الصيغة في سورة يونس، وفيها أيضا: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾. وفي سورة مريم بعد أن تحدث الله عن حمل مريم البتول لابنها عيسى ومولده وكلامه الناس في المهد قال جَلَّ شأنه: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ في قراءة من ضم قول الحق، أما قراءة النصب لقول فعلى معنى: قولا حقا.

وهو الحق الأزلي صانع الكون ومديره. ولعل الله سمى نفسه باسم الحق إعلاء له بين المسلمين، حتى يشيع بينهم احترام حقوق الأفراد فلا ينهب شخص مال شخص ولا عقارا له، وحتى لا يرضخوا ولا يستكينوا لحكم حاكم ظالم لا يخاف الله فيهم ولا يخشاه، ولذلك يعد الرسول كلمة الحق يقذف بها شخص في وجه سلطان ظالم ضربا من الجهاد كما في الحديث الأول، إذ لم يخف منه ولا من ظلمه وبطشه. ويدعو في الحديث الثاني إلى الأخذ على يد الظالم لتردوه وتمنعوه.

وتسمِّي الآية الرابعة الشريعة الإسلامية باسم الحق، وسمى القرآن بنفس الاسم الشرائع السماويَّة جميعا قائلا في سورة الأعراف: ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ ويشير القرآن مرارا وتكرار إلى أن الشريعة الإلهية واحدة وأن ما أوحى به إلى رسول هو ما أوحى به إلى غيره من الرسل. ومن قوله في ذلك بسورة الشورى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ فشريعة الله شريعة واحدة ظل الرسل يبلِّغونها إلى شعوبهم واحدا بعد واحد حتى خُتموا برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. والله لا يريد بتلك الشريعة الواحدة أن كل ما جاء به رسول يطابق في مصالح الناس تمام المطابقة ما جاء به الرسول الآخر، فإن أصول الشريعة هي التي لا تختلف، وهى توحيد الله وعبادته والإيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، أما الفروع فإنها تختلف باختلاف الأعصار وفقا لمصالح الجماعات وحاجاتها المتجددة، ولذلك يقول الله لرسوله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾. ويذكر الله عن الشريعة الإسلامية أنها خاتمة الشرائع الإلهية وأنها تصححها وتسيطر عليها كما جاء في سورة المائدة: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي الكتب السماوية ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي ومراقبا وحاكما عليها، لأنه الصورة الإلهية الختامية للشريعة الربانية، ويقول الله إنه يعدِّل في فروع الشريعتين اليهودية والنصرانية بما يرفع عن اليهود والنصارى ما في شريعتيهما من إصْرٍ وأغلال أي أوامر ثقيلة شاقة كما جاء في الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف، ويقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ من آيات الكتب السماوية في القرآن ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أي نؤجلها إليه ﴿ نَأْتِ ﴾فيه ﴿ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ لمصلحة الناس، إذ أُرسل الرسول صلى الله عليه وسلم للناس كافة.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث لمعاذ بن جبل: هل تدرى حقَّ الله على عباده وحق العباد على الله؟ ويجيبه: الله ورسوله أعلم، فيقول له: إن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئا. وعلى المسلم بجانب حق الله في العبادة حق في العقيدة وهو أن يؤمن بالحساب والجزاء في اليوم الآخر والملائكة والرسل والكتب السماوية وأن يؤدى ما فرض الله عليه من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأيضا حق في السلوك الخلقي ومصالح الأسرة والمجتمع مما فصَّلته الشريعة الإسلامية تفصيلا وافيا. وقد فصلتْ ما أعطاه الله للمسلم من حقوقه في الميراث وغير الميراث كما يشهد الحدث الرابع القائل بأن الله أعطى كل ذي حق حقه، مما يعنى أن الشريعة الإسلامية تحافظ للإنسان على ما له من حقوق لذاته، وما عليه من حقوق لربه وأسرته ومجتمعه وأمته.

٣٩- الجهاد ضد الأعداء

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

البقرة ٢١٦

٢- وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

التوبة ٣٦

٣- ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

التوبة ١١١

٤- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)

الصف ١٠- ١٣

obeikandi.com

الأحاديث

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا ؟ قال: الجهاد في سبيل الله (رواه البخاري في كتاب الإِيمان وكذلك مسلم).

٢- عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه: أن رجلا أتى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، فقال: أي الناس أفضل؟ قال: رجل يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله (رواه مسلم في كتاب الإَمارة).

٣- عن عثمان رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل (رواه الترمذي وابن حنبل في مسنده).

٤- عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة (رواه البخاري ومسلم مع اختلاف في بعض الألفاظ).

والله يقول في الآية الأولى مخاطبا المسلمين إن القتال كُتب عليكم وفُرض لحرب أعدائكم من المشركين لإِعلاء كلمة الله، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ إذ يباعد بينكم وبين حياتكم العادية وما فيها من طمأنينة، وتتعرضون فيه لخطر القتل ولآلام ما قد يحدث من جروح لكم، ويقول مطمئنا لهم: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ إذ يحقق لكم مصالح تجهلونها، ويدفع عنكم مضار لا تعرفونها، على الرغم من كراهيتكم له ونفوركم منه، فقد تكرهون شيئا وفيه نفعكم ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ فيه هلاككم (وَاللَّهُ يَعْلَمُ) ما فيه نفعكم أكبر نفع وما فيه ضرركم أشد ضرر، لأنه يعلم العواقب ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ مما يوجب عليكم أن تتلقوا دائما تشريعاتكم مؤمنين بأنها تتضمن الخير لكم كل الخير والنفع لكم كل النفع. ويكرر الله- جَلَّ شأنه- في القرآن الدعوة إلى القتال وجهاد أعدائه وأعداء المسلمين. ويكثر الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الدعوة في أحاديثه على نحو ما نرى في الحديث الأول، وقد سُئل أي العمل أفضل؟ فقال: الإِيمان

بالله ورسوله، وقيل له ثم ماذا؟ فقال الجهاد في سبيل الله، فجعل الجهاد موازيا للأصل الأول في الشريعة الإسلامية، وهو الإيمان بوحدانية الله ورسوله، وكأنه يجعله الأصل الثاني. وكرر ذلك في الحديث الثاني إذ سأله رجل أي الناس أفضل؟ فأجاب: رجل يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.

وذكر الله الآية الثانية عقب حديثه عن الأشهر الحُرم حتى لا يُظَن أن النهى عن انتهاك الأشهر يؤذن بالنهى عن قتال المشركين فيها إذا حملوا السلاح لقتال المسلمين واستحلوا ذلك، فإنه يجب على المسلمين حينئذ أن يقاتلوهم فيها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي أنه سينصركم لتقواكم. والآية الثالثة تحمل تلطفا عظيما من الله جلَّ وعز بأنه اشترى من المؤمنين المجاهدين أنفسهم وأموالهم بجزاء عظيم لجهادهم هو الجنة، ويستمر الله- جل جلاله- في تلطفه للمؤمنين بقوله إن هذا وعد عليه في الكتب السماوية الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن. ويقول أيضا متلطفا: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ وهى بيعة إلهية لا تماثلها بيعه نظير الجهاد وأنهم يقتلون أعداء الله من المشركين في ميدان الحرب، وقد يُقْتَلون ويستشهدون، ويصبحون من أهل الجنة. (وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذي لا يماثله فوز.

ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم الحديث الثالث وما يذكر فيه من أن مرابطة يوم في حرب المشركين خير من ألف يوم في عبادة الله، وفى رواية لسلمان الفارسي رضى الله عنه أن رباط يوم في الحرب خير من صيام شهر وصلاة لياليه. وفى حديث ثالث أن بكورا للجهاد أو روحة له في المساء خير من الدنيا وما فيها، وفى حديث رابع: أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف في حرب المشركين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر يستنهض الصحابة: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض فقال عُمَير بن الحمام الأنصاري رضى الله عنه: يا رسول الله عرضها السماوات والأرض! قال: نعم فأخرج تمرات كانت معه، فجعل يأكل منها ثم قال لئن أنا حَييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، ورمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل المشركين حتى قُتل.

ويخاطب الله المؤمنين في الآية الرابعة قائلا: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ﴾ تخلصكم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ واستعيرت التجارة للدلالة على العمل الصالح لتشابههما في طلب النفع عن طريق كل منهما. ويجيب الله- جَلَّ جلاله- بأنها الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال

والأنفس، فإن في ذلك خير الدنيا والآخرة لو أنكم تعلمون. ويصور الله هذا الخير قائلا إنه يغفر للمجاهدين في سبيل الله ذنوبهم ويدخلهم جنات مونقة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ويسكنهم في قصور طيبة ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وإقامة خالدة ينعمون فيها نعيما لا مثيل ولا نظير له﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ ﴾الرَّبّاني ﴿الْعَظِيمُ ﴾. ويصور الرسول مدى هذا الفوز للشهداء المؤمنين ومدى ما أُغْدق عليهم من النعيم والفضل الإلهي بقوله: إنه لا يقبل أحد ممن يدخل الجنة أن يعود إلى الحياة الدنيا وما كان يملكه فيها من أشياء سوى الشهيد فإنه يتمنى أن يعود إليها ويستشهد فيها عشرات المرات، لينعم مرارا بما أغدق الله عليه من أفضاله، ويذكر الله بعض هذه الأفضال على شهداء المؤمنين بقوله في سورة آل عمران: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِّ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللهُّ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والآيتان تثبتان لهؤلاء المجاهدين الشهداء موتا دنيويا إذ قتلوا ودفنوا، وتنفى عنهم الموت الحقيقي إذ هم أحياء عند ربهم يُرزقون، فهم أموات الأجسام أحياء الأرواح، وهى حياة تجعلهم مع موتهم الجسدي ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللهُّ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ مستبشرين بأن رفقاءهم من المؤمنين الذين لم يكتب لهم الاستشهاد يوم أحد يظلون يتنصرون على المشركين في الغزوات والحروب التالية دون أن يمسهم أي قَرْح أو أي أذى.

٤٠- العفـو

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ

البقرة ١٧٨

٢- وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)

آل عمـران ١٣٤

٣- خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)

الأعراف ١٩٩

٤- وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ

البقرة ٢١٩

الأحاديث

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن أصيب بقتل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتصَّ، وإما أن يأخذ الدية، وإما أن يعفو.. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها (رواه ابن حنبل في مسنده وابن كثير في تفسيره الآية الأولى).

٢- عن أبَيّ بن كعب رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن سَرَه أن تُرْفَع له الدرجات، فليعفُ عمن ظلمه، ويُعطِي من حَرَمه، ويصل من قطعه (رواه ابن كثير في تفسيره الآية الثانية).

٣- عن عقبة بن عامر أنه لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: يا عقبة صِل مَن قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك (رواه ابن حنبل في مسنده وابن كثير في تفسيره للآية الثالثة).

obeikandl.com

٤- عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل في إعطاء الصدقة: ابدأْ بنفسك فتصدَّق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن قرابتك شيء فأنت أبصر (رواه مسلم وابن كثير في تفسير الآية الرابعة).

ولكي تُفْهم الآية الأولى نتلوها كاملة إذ يقول جَلَّ شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. القصاص وهو قتل القاتل بمن قتله كان معروفا في الأمم السابقة، فعفا الله لهذه الأمة الإسلامية أن يأخذ أهل القتيل من القاتل دية لقتيلهم: وأصل العفو في اللغة الفضل، والعفو في الآية ليس من ولى الدم، ولكن من الله، إذ جعل الله لهذه الأمة في القتيل الدية عفوا منه وفضلا أي أن الله عفا عن القاتل بالدية وأباحها لولى الدم يأخذها مؤثرا لها على القصاص، وعليه أن يطلبها بالمعروف أي بالطريقة الحسنة، وعلى القاتل أن يؤدى الدية إليه بإحسان. والآية تدعو لقبول الصلح بين أهل القتيل والقاتل استبقاء ومحافظة على ما بين الأسرتين أو العشيرتين من أخوة الإسلام التي أقامها الله مقام أخوة النسب، ومن أجل ذلك وصف القاتل بأنه أخوه ترغيبا لولى القتيل في الصلح وقبول الدية منه، وسماها ﴿شَيْءٍ ﴾ أي شيء ميسور من المال يستطيع القاتل تقديمه. وتقول الآية إن ذلك تخفيف من ربكم عليكم ورحمة عظيمة ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي بعد العفو عنه وعاد إلى القتل مرة أخرى فلا تقبل منه الدية ويُقتص منه، وله في الآخرة عذاب أليم. وأجازت الشريعة لولى القتيل أن يعفو عن القاتل، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول أن ولى القتيل إما أن يقتص منه وإما أن يمنحه العفو وإما أن يأخذ الدية.

والآية الثانية تدعو إلى العفو عن إساءات الناس مطلقا مسلمين وغير مسلمين، ودعا الله هذه الدعوة في القرآن مرارا وتكرارا، وسمى نفسه العفُوَّ تباركت أسماؤه، وطلب مرارا من رسوله ومن المؤمنين العفو والصفح عن المسيئين وأنه سيجزيهم عن ذلك يوم القيامة الجزاء الأوفى. والحديثان الثاني والثالث في هذا العفو المستحب لرب العزة: أن تعفو عمن ظلمك، وأن تعطى من حرمك يوما، وأن تصل قريبك الذي قطعك، وبذلك تَلْقى سيئاتهم جميعا بحسنات يضاعف الله لك أجرها وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان يوم

القيامة نادى منادٍ أين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم خذوا أجوركم، فإنه حق لكل امرئٍ مسلم عفا عمن ظلمه أن يدخل الجنة.

والله- تبارك اسمه- في الآية الثالثة يقول للرسول صلى الله عليه وسلم (خُذ العفو) أي اجعله صفة لازمة لك، والعفو: الصفح عن ذنب المذنب، والرسول يعد مثلا أعلى في العفو، فقد عفا عن كل من أسلم من المشركين مهما كان قد أساء إليه، ويقول الله له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وكان كلما تعرضت له قريش بالإيذاء لم يدع عليها بل دعا لها ربها قائلا: اللهم اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون. ويقول الله له ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ وهو الفعل الذي لا ينكره العقل ولا الشرع، وهو فعل الخير مما يحث عليه الإسلام ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي السفهاء من المشركين فلا تقبل عليهم ولا تلتفت إليهم وعفوه- صلى الله عليه وسلم- عن أعدائه المحاربين له في قريش يوم فتح مكة مما سارت به القصص والأمثال.

والآية الرابعة في الصدقة، والعفو فيها هو ما فضل عن حاجة الشخص من المال بعد نفقته ونفقة أهله، وذكرُ الله للعفو أو الفضل دليل على أنه لا يريد من المتصدقين أن يشقوا على أنفسهم في إعطاء الصدقات، بل يؤدونها من الفاضل عن حاجاتهم بحيث لا تشق عليهم، وهى حكمة عظيمة من الله، أراد بها الخير للمتصدقين والمحتاجين. وإنفاق هذه الصدقة إنفاق تطوعي، وهو غير إنفاق الزكاة الواجبة على كل مسلم. وقد حبَّب الله في القرآن المسلم في أن يؤدى الصدقة لمن يحتاجون من الفقراء والمساكين، وسماها قرضا حسنا له، وقال إن جزاءها يضاعف إلى سبعمائة ضعف. وفى الوقت نفسه شدد الرسول على أن لا يصَّدق المسلم بكل ماله، مخافة أن يؤول به وبأهله إلى فقر، وهو نفسه ما دعا إليه القرآن إذ قال إن الصدقة عفو أو فضل زائد من مال الشخص، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً، وابدأْ بمن تعول أي من الزوجة والأولاد وذوى الرحم، والإنفاقُ عليهم جميعا صدقة مفضّلة مقدمة على غيرها من الصدقات، وقال صحابي جليل لرسول الله إنك تعلم أن عندي مالا كثيرا وأريد أن أتصدق به. فلفته إلى أن له زوجة وأولاد وكان مما قال له: إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس.

وفى الحديث: إنك لا تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليها حتى اللقمة تجعلها في فم زوجتك. والحديث الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم يؤكد كل ما ذكرناه، فقد قال لمن سأله عن الصدقة ابدأ بنفسك فإن فضل شيء فلأهلك أي لزوجتك وِأولادك، فإن فضل شيء فأعطه لأقربائك، فإن فضل شيء منهم جميعا فأنت أدرى بمن تعطيه إليه.

obeikandl.com

٤١- الرِّفق

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

آل عمران: ١٥٩

٢- اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)

طه: ٤٣، ٤٤

٣- وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)

الشعراء: ٢١٥

٤- مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

الفتح: ٢٩

الأحاديث

١- عن السيدة عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله رفيق يُحبُّ الرِّفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه (رواه مسلم في كتاب البر والصلة).

٢- وعنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرِّفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع عن شيء إلا شانه (رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تحقرنَّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق (رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب).

يقول الله- تقدس اسمه- لرسوله صلى الله عليه وسلم: في الآية الأولى إنه جعل خُلقه لينا رحمة منه به وبالأمة الإسلامية، حتى يستطيع حملها على شريعته وإقناعها بكل ما جاء به من مبادئ

obeikandl.com

وتعاليم، و هي منة عظيمة لله على رسوله وعلى أتباعه، وهى أن يكون لطيفا معهم أنيسا لهم، مما كان له أثر بعيد في التفافهم حوله. ويقول الله لرسوله: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ والفظ: الجاف سيِّئ الخلق، والغليظ القلب: القاسي الذي لا يعرف رأفة ولا رحمة ولا شفقة، وكان الرسول مملوءا شفقة ورحمة ورأفة على أتباعه من المؤمنين كما يقول جَلَّ شأنه- في وصفه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ والآية موجهة للمؤمنين والمشركين، فهو يعز عليه عنت المؤمنين بالقتال، وأيضا عنت المشركين فيه، وهو منتهى الرأفة والرحمة بهم. وهو حريص أشد الحرص على المؤمنين أن لا يتكلفوا أي مشقة، وبالمثل حريص على الكافرين من المشركين أي على إيمانهم واعتناقهم للإسلام، وهو أيضا منتهى الرأفة والرحمة والرفق بهم. وكان لا ينبي يحبِّب المسلمين في الرفق والرحمة والرأفة، ومن قوله في الحديث الأول: إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه، فالله رفيق منتهى الرفق، وطبيعي أنه لا يعطى على العنف، وإنما يعطى عطاء مستمرا على الرفق، والرسول- بذلك- يحض على الرفق. وبالمثل يقول في الحديث الثاني: إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَعُ من شيء إلا شانه.

والله- جَلَّ وعز- يقول في الآية الثانية لموسى وهرون: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ وعتا في الأرض وازداد عتوّه وطغيانه ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ أي خاطباه بالملاطفة واللين كما في أمر موسى أن يقول لفرعون بسورة النازعات ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى.وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ وكأمر موسى مع هرون أن يقولا لفرعون: ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ وفى سورة العنكبوت أن مجادلة أهل الكتاب ينبغي أن تكون بالكلام اللين حتى يتقبلوا جدالكم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. ويُعلى الله من شأن الكلمة الطيبة اللينة قائلا: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ أي قول حسن للفقير أو كلمة طيبة خير من صدقة تعطى له تتبعها إساءة كأن يظهر المتصدق تطاولا واستعلاء على الفقير أو يعيِّره بالفقر وغير ذلك مما يؤذيه. ويجعل الرسول صلى الله عليه وسلم الكلمة الطيبة اللينة- في حديث له- يوجهها المسلم لأخيه من المسلمين صدقة، وكأنه يريد أن يكون كلام جميع المسلمين بعضهم لبعض كلاما لينا طيبا، فيعم بينهم الرفق والرأفة والأخوة الصحيحة.

ويقول الله لرسوله في الآية الثالثة: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي تواضع لهم وعاملهم بالرفق واللين واللطف، والأحاديث عنه في هذه المعاملة الرقيقة كثيرة، من ذلك أنه كان إذا جاءته هدية من طعام أو شراب أرسل إلى أهل الصفَّة، كما يروى أبو هريرة يقول: دخل الرسول البيت فوجد قدحا كبيرا من لبن، فقال له: ادع أهل الصفَّة، فجاءوا فأمر أبا هريرة أن يمر على كل منهم بالقدح حتى إذا ارتووا جميعا تبسم وقال لأبى هريرة بَقيت أنا وأنت، وقال: اقعد واشرب، وكرر ذلك عليه مرارا. ثم ناوله أبو هريرة القدح، فحمد الله تعالى وسمَّى وشرب الفضلة. وهى صورة من رفقه العظيم بصحابته. وكان لا يمر على غلمان في طريقه إلا ويسلم عليهم، وحدث أن كان في مجلس له يوما وعلى يمينه غلام وعلى يساره الأشياخ، وأُتى بقدح فيه شراب، فشرب منه، وقال للغلام: أتأذن لي أن أعطى القدح هؤلاء فقال الغلام: لا والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدا، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم القدح فد يده. وهذان خبران من أخبار كثيرة تدل على مدى ما كان يأخذ به نفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملة أصحابه من الشيوخ والغلمان من الرفق الكريم. وكان لا يزال يوصى به أصحابه، حتى ليوصيهم بالكلمة اللينة الطيبة المؤنسة، وأيضا فإنه كان يوصيهم- كما في الحديث الثالث- بحسن لقائهم بعضهم لبعض وما ينبغي أن تعبر عنه وجوههم من البشر والصفاء والطلاقة والبشاشة.

ويثنى الله- عزَّ شأنه- على الرسول وأصحابه في الآية الرابعة معرَّفا لهم بأنهم (الَّذِينَ مَعَهُ) وهى معية أو صحبة كريمة، ويصفهم الله بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ يقاتلونهم لأنهم جند الله ورسوله وجند الدين الحنيف يحمونه ويدافعون عنه. وهم مع هذه الشدة التي تنطوي عليها نفوسهم ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إذ هم إخوة يتراحمون ويرفق بعضهم ببعض، كما وصفهم في سورة المائدة بقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ والذل في الآية معناه لين الجانب وما يتضمنه من الرفق والرحمة والرأفة بإخوانهم من المؤمنين، وهم أعزة شداد صلاب على الكافرين. ولعل حديثا لا يصور ما بين المسلمين من الرفق والرأفة والرحمة كحديث النعمان بن بشير عن الرسول صلى الله عليه وسلم: مثلُ المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وكأنهم ليسوا أمة ذات أفراد، بل كأنهم جسد واحد، إذا

مرض منه عضو لبَّته جميع الأعضاء بالسَّهر له والحُمَّى، وهو تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم على بعض والحض على أن يلاطف كل منهم أخاه ويعاونه ويمد له يد الرفق والرأفة.

obeikandl.com

٤٢- المواساة- الإيثار

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ

البقرة ١٧٧

٢-لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

آل عمران ٩٢

٣- وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

الحشر ٩

٤- وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)

الإنسان ٨

الأحاديث

١- عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله جعل حسنة ابن آدم عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف (رواه ابن حنبل في مسنده).

٢- عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة- رضى الله عنه- أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكأن أحبُّ أموال إليه بَيْرَحاء (حديقة) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب.

obeikandi.com

قال أنس: فلما نزلت هذه الآية ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قال للرسول إن أحبَّ مال إليَّ بيرَحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو بِرَّها وذُخرَها عند الله تعالى، فضَعها- يا رسول الله- حيث أراك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بَخٍ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قُلْتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه (رواه البخاري في الزكاة والتفسير ورواه مسلم في الزكاة).

٣- وعن أنس قال: قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمْنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المئونة وأشركونا في المهنأ[١]، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال لا ما أثنيتم عليهم ودعوتهم الله لهم (رواه ابن حنبل في مسنده).

٤- عن أبى هريرة جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني مجهود[٢]، فأرسل إلى بعض نسائه، فقلن: ليس عندنا إلا الماء، فقال صلى الله عليه وسلم: مَن يُضيف هذا الليلة، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى بيته، فقال لامرأته أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسألها هل عندك شئ؟ فقالت لا إلا قوت صبياني، قال: عَلِّليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا، وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة (رواه مسلم في الأشربة والترمذي والنسائي في التفسير).

نزلت الآية الأولى بعد أن أمر الله المؤمنين بالتوجه في صلاتهم إلى الكعبة بعد أن كانوا متوجهين فيها إلى بيت المقدس، وشق ذلك على بعض أهل الكتاب وبعض المسلمين. والمراد بالبر في الآية طاعة الله وامتثال أوامره، فهذا هو البر وليس- كما قال الله- في لزوم التوجه في الصلاة إلى المشرق أو المغرب، فالبر إنما هو في الإيمان الكامل بالله ووحدانيته واليوم الآخر وأنه لا ريب فيه وبالملائكة والكتب الربانية والنبيين، وفى إخراج المؤمن للمال مع حبه له مواساة للأقرباء واليتامى الذين لا يقتدرون على التكسب والمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم في معاشهم، وابن السبيل

---

١)) في المهنأ : فيما يعولهم.

٢)) مجهود : متعب تعبا شديدا.

المسافر الذي فرغت نفقته فيعطَى ما يكفيه لإكمال مسيرته والسائلين من الفقراء الطالبين للعطاء من الزكاة والصدقة ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أي في العبيد المكاتبين لتحريرهم وينقصهم بعض المال المطلوب. وهذه المواساة لكل هؤلاء الأشخاص طلبها الله- جل شأنه- لهم في القرآن مرارا وتكرارا وقال إنه يجزى عليها الجزاء الأوفى، وسماها قرضا له، وأنها تفتح للمواسين أبواب الجنة، سوى الثواب المضاعف. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول إن الله جعل الحسنة في هذه الصور من المواساة تتضاعف عند الله إلى عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

والبر في الآية الثانية هو كمال الخير وطاعة أوامر الله في الشريعة الإسلامية، والله يخاطب في الآية المؤمنين قائلا إنهم لن ينالوا البر الإلهي حتى ينفقوا من مالهم المحبوب لهم العزيز عليهم، وهى دعوة عظيمة لأهل الجود من أغنياء المؤمنين كي يبذلوا للفقراء بعض ما يتشوَّفون إليه من نفيس أموالهم، وبذلك تتوثق الصلات بين أغنياء المؤمنين وفقرائهم، وتدعم أواصر الأخوة التي ينبغي أن تسود وتعم في الأمة. وحين نزلت الآية أسرع بعض الصحابة يعرضون على الرسول صلى الله عليه وسلم خير ما يملكون من أموالٍ صدقة لله يرجون برها وأن يضعها حيث يريد، وفى مقدمتهم أبو طلحة الأنصاري وكان من أكثر أهل المدينة ثراء ومالا، وقال له- كما في الحديث الثاني أن أحب أموالي إليَّ حديقة بَيْرحاء- وكانت في مواجهة المسجد- وأنا أقدِّمها صدقة لله تعالى أرجو برَّها وذُخرها عند الله، فضَعها يا رسول الله حيث تريد فقال له استحسانا بَخٍ ذلك مال رابح عند الله. وأشار عليه أن يجعل الحديقة في أقربائه، فصدع لمشورته، وقسمها بين أقاربه.

والله يثنى في الآية الثالثة على أخوة الأنصار للمهاجرين قائلا إنهم ﴿ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي سكنوا المدينة كما سكنوا الإيمان بالله وتوحيده وبرسوله ورسالته مخلصين للإسلام أشد الإخلاص وأعمقه، وإنهم ليحبون المهاجرين إليهم مع الرسول من مكة، ولا يجدون في صدورهم لهم أي غضاضة أو رغبة في شيء مما أعطى الرسول لهم من فَيء بنى النضر حين أخرجهم من المدينة حتى يردّوا على الأنصار ثمارهم التي كانوا شاطروهم فيها. ويمدح الله الأنصار مدحا عظيما بما قدموا للمهاجرين من مؤاخاة ومواساة بل من إيثار على أنفسهم قائلا ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي احتياج شديد. وهى مؤاخاة قامت على ثلاثة مبادئ: على الحق، والمواساة في المال، والتوارث، وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين

ونصفهم من الأنصار بحيث كان يتآخى كل مهاجر منهم مع أنصاري فينزله داره ويعطيه من نخيله.

وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة دون القرابات حتى نزلت آية المواريث في سورة النساء بالسنة الرابعة للهجرة وآية سورة الأنفال: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾. ويصور الحديث الثالث عن أنس بن مالك مدى ثناء المهاجرين على الأنصار في هذه المواساة إذ قالوا: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المئونة وأشركونا فيما يعولهم، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال لا ما دمتم تثنون عليهم وتدعون الله لهم.

والآية الرابعة تصور مدى إيثار المؤمنين إطعام المساكين واليتامى والفقراء والأسارى طعامهم مع محبتهم له واشتهائه. والمسكين، المحتاج ومن لا يجد الكفاية لعيشه، والمراد باليتيم الذي ليس له من يعوله، والأسير يشمل المسلم وغير المسلم، وهو حنو عظيم لله على أسرى المشركين، ويشهد لهذا الحنو كما مر بنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى من المشركين فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء. وفى كتب السيرة وتراجم الصحابة قصص كثيرة عن الإيثار، إيثار المؤمن لأخيه المؤمن بما هو في أشد الحاجة إليه. فمن ذلك أن فقيرا من الأنصار أُهْدى إليه رأس شاة فوجه به إلى جار له ظانا أنه أحوج إليه منه، فوجَّه الجار بالرأس إلى جار آخر، حتى تداولته سبعة بيوت، إلى أن عاد إلى صاحبه الأول. ومن ذلك قصة الماء التي مرت في غير هذا الموضع إذ عُرض على عكرمة بن أبى جهل وأصحابه فكان كل منهم يأمر بدفعه إلى أخيه، وهو يئن جريحا أحوج ما يكون إلى الماء، فيسمع جريحا يئن مثله، فيقول لحامل الماء أعطه له، فيسمع الثاني أنين جريح مثله فيؤثره بالماء، ويموت الثلاثة، ولم يشرب أحد منهم الماء مؤثرا صاحبه. ومن صور هذا الإيثار الرائع الحديث الرابع الذي آثر فيه أنصاري ضيف لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعشائه وعشاء زوجته وأولاده، وباتوا جميعا طاوين لوجه الله مرضاة له ولرسوله، وطلبا لثوابه.

٤٣- الرحمة بالإنسان- وبالحيوان

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

الأنعام ٥٤

٢- وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

الأعراف ٥٢

٣-قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)

يونس ٥٧

٤- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)

الأنبياء ١٠٧

الأحاديث

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما خلق الله الخلق كتب في كتاب عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبى (رواه البخاري، في الرقاق ومسلم في التوبة).

٢- عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله (رواه مسلم في كتاب الفضائل).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والأنس والبهائم والهوام[1] فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف

---

١)) الهوام : الطير والحشرات.

obeikandl.com

الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعا وتسعين من رحمته يرحم بها عباده يوم القيامة (رواه البخاري في الأدب ومسلم في التوبة).

٤- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عُذِّبَت امرأة في هرة عذَّبتها: حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش[1] الأرض (رواه مسلم في كتاب السلام باب تحريم قتل الهرة).

والله- جَلَّ شأنه- يقول في الآية الأولى إنه كتب على نفسه الرحمة أي أنه فرضها على نفسه والتزم بها التزاما، وقد كتبها- كما يقول الحديث الأول- في كتاب عنده فوق العرض وسلطانه الكوني وفى علمه، وجعلها بحيث تغلب غضبه، ومعناها العطف على الأحياء، وتُرَى آثار عطفه ورحمته في إحسانه إليهم وعونهم والرفق بهم والرأفة وما يسَّر لهم من النعم المادية والمعنوية. وقد ترددت نعمة الرحمة الإلهية ومشتقاتها في القرآن الكريم مئات المرات، وجعلها الله لا تعم الناس فحسب، بل تعمّ الأشياء جميعا كما جاء في آية سورة الأعراف: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ودعا القرآن بقوة إلى أن لا ييأس أحد من رحمة الله مهما يكن ذنبه ومهما تكن معصيته بمثل قوله في سورة الزمر: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾. وهو بذلك يفتح أبواب الرحمة والغفران للعصاة المذنبين النادمين.

ويقول الله جَلَّ شأنه في الآية الثانية إنه جاء الناس ﴿ بِكِتَابٍ ﴾ هو القرآن الكريم ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ وبيناه ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ عظيم، علم رباني لا يعتريه أي خطأ، بل هو علم صحيح منتهى الصحة فيه ﴿ هُدًى ﴾ أي دلالة كاملة لما فيه صلاح الدنيا والآخرة، وفيه ﴿رَحْمَةً ﴾ أي رفق بالمؤمنين في تشريعاته. وصوَّر الله ذلك تصويرا بآية النسخ في سورة البقرة قائلا: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أي من آيات الكتب السماوية السابقة ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أي نؤجلها ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ في القرآن رحمة بالناس وتخفيفا عليهم. أما ما قد يقال من أنَّ الله فرض مع هذه الرحمة في الشريعة الإسلامية صورا من القصاص والحدود فإن ذلك أوجبته مصلحة المجتمع الإسلامي إزاء الكبائر من مثل القتل والسرقة وهو لا

---

١)) خَشاش الأرض : هوامها وحشراتها.

يعارض الرحمة بل توجبه لتنظيم حياة المسلمين ولكي يسودها الأمن، بالحدود من جهة، وبالرحمة التي ينبغي أن تشيع بينهم وتشيع معها المودة والأخوة بين المؤمنين. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث عليها كما في الحديث الثاني قائلا إن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ولا يحنو عليه.

ويصور الله عزَّ شأنه- في الآية الثالثة ما يحمله القرآن الكريم للناس من مواعظ في قصصه عن الأنبياء وفى تصويره لنعيم المؤمنين في الجنة وعذاب الكافرين في النار، مما يجعل الكافر الضال برعوي ويؤمن بالله ولا يشرك معه أحدا. ويقول الله عن كتابه إنه شفاء لما في الصدور من الكفر والضلال، وكأنه دواء رباني يقضى على هذين المرضين قضاء مبرما، إذ يصبح المؤمن به المتناول له معافى منهما ويتم له الشفاء النفسي المقابل لشفاء الجسد المادي من مرض عضال. ويقول الله في هذه الآية- كما في الآية السابقة- إنه أنزل القرآن لهداية الناس إلى الطريق الديني القويم ورحمة لهم إذ يشفيهم شفاء نفسيا تاما ويوجِّههم إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

ويقول الله لرسوله في الآية الرابعة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ويقتضي ذلك أن يكون الرسول رحمة بحق لأمته كما قال ربُّ العزة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ والرأفة ومعها الرحمة صفتان من صفات الله عزَّ وجَلَّ في الذكر الحكيم في مثل قوله بسورة البقرة: ﴿ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾. وهو تشريف لرسولنا لا يماثله تشريف. وكما أسبغ الله الرحمة على رسوله أسبغها على شريعته كما أوضحنا ذلك في الآية السابقة، وأسبغها الإسلام في معاملته الرحيمة لغير المسلمين إذ ارتضى منهم أديانهم وقال الله ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وقال لرسوله: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ والحكمة: البراهين العقلية كما في إثبات القرآن لوحدانية الله، والموعظة الحسنة كما في قصص الرسل وما نزل من العقاب بمن عصوهم، والمجادلة الحسنة كمجادلته اليهود في سورة البقرة. وكل تلك أساليب رحمة ورفق بالناس في إقناعهم بالأدلة البينة، ولذلك يقول الله إنه أرسل رسوله ﴿ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي لجميع الخلق إذا أرسله إلى الناس كافة بهذه الرحمة في طرق الاستدلال. وقد ذكر في سورة الأعراف أن القرآن يضع عمن يسلم من اليهود والنصارى

﴿ صْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي الأوامر والنواهي الشاقة في ديانتيهما. والقرآن- بذلك- شريعة رحمة بحق لأتباعه ولمن يدخل فيه من الخلق أجمعين.

وعلى هذا النحو قامت شريعة الإسلام على دعامة الرحمة، وأنزل الله من رحمته جزءا واحدا في الأرض وأمسك بقية أجزائها- كما يقول الحديث النبوي- ليوم القيامة يرحم بها عباده. وجزء الأرض تقاسمه الإنس والجن وكل ما على الأرض من الحيوان والطير، فبه يتعاطفون ويحنو بعضهم على بعض، وبه يتراحمون ويرفق بعضهم ببعض، فيحنو الآباء على أبنائهم، ويحنو الطير على فراخه ويقوتها في أعشاشها، وتحنو الدواب على أولادها، حتى لتحذر الدابة أن يقع حافرها على ولدها.

ومع أن الله خلق للإنسان كل ما على الأرض من الحيوانات كما جاء في مثل قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ مع ذلك دعت الشريعة الإسلامية إلى الرحمة بالحيوان رحمة بالغة، بحيث لا يشق عليه الناس فيما يعمل وفيما يحمل. ونرى الرسول صلى الله عليه وسلم يشدد في الرحمة بالحيوان المستأنس وأن لا يناله أي أذى، كما في الحديث الرابع إذ يقول إن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، إذ لم تطعمها ولا سقتها ولا تركتها تأكل من هوام الأرض. وعن أبي ذرٍّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خُفَّه (حذاءه) ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رَقِيَ (صعد) فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، وزاد البخاري: فأدخله الجنة، وقال الصحابة يا رسول الله إن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: في كل كبد رَطْبةٍ أجر (رواه البخاري ومسلم). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينهى عن اللعب بالطير وعن تعذيب الحيوان بالنار حتى النملة، وفي حديث رواه أبو داود عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجة، فرأينا حُمَّرة (قُبَّرة) معها فرخان، فأخذنا فَرْخَيها، فجاءت الحمرَّة فجعلت تُعَرِّش أي ترتفع وتبحث عن فرخيها، فقال الرسول: مَن فجع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها. ورأى قرية (مجمع) نَمل حرقها بعض الصحابة فقال: من حَرَّق هذه ؟

قالوا نحن، قال إنه لا يعذب بالنار إلا رَبُّ النار. أرأيت إلى هذه الرحمة والشفقة على الحيوان والطير بجانب الرحمة والشفقة على الإنسان أليس بحق يسمى الإِسلام دين الرحمة.

obeikandl.com

٤٤- إكرام اليتيم

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)

النساء: ٢

٢- إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)

النساء: ١٠

٣- فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)

البلد: ١١- ١٥

٤- أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)

الماعون: ١ و ٢

الأحاديث

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كافلُ اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين (مشيرا بإصبعيه: الوسطى والسبابة) في الجنة (رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق).

٢- في الحديث أن رجلا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: فقال: إن عندي يتيما عنده مال وليس لي مال هل آكل من ماله؟ قال الرسول: كل بالمعروف غير مسرف (رواه أبو داود والنسائي بكتابيهما في السنن).

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصدقة على المسكين صدقة واحدة وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة (رواه الترمذي في جامعه والنسائي في سننه).

٤- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خير بيت في بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَن إليه، وشرُّ بيت في بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه (رواه ابن كثير في تفسيره).

والله- جَلَّ وعز- يأمر كفلاء اليتامى بأن يدفعوا لهم أموالهم، وهم لا يدفعونها لهم إلا إذا بلغوا أو كانوا راشدين، وإذن فتسميتهم يتامى باعتبار ما كانوا عليه، وشرط الرشد سيذكره الله في آية تالية. وقيل المراد بالأموال هنا أموال المواريث إذ كانوا لا يورثون اليتامى لأنهم صغار، وبذلك تكون كلمة يتامى بمعناها الأصلي، فهم يتامى حقيقيون لا باعتبار ما كان. ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ إذ كان بعض الكفلاء يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويعطيه مكانها شاة هزيلة، ويقول شاة بشاة، فنهى الله الكفلاء أن يصنعوا ذلك أو ما يماثله، كما نهاهم أن يأكلوا أموال اليتامى إلى أموالهم، بمعنى أن يستولوا على أموال اليتامى ويضموها إلى أموالهم. والنهى عن أكل أموال اليتامى ليس واقعا فقد على ضمها إلى أموالهم، بل هو عام سواء ضموها أو لم يضموها، والقيد في الآية أي قيد الضم إلى أموالهم أريد به التشنيع على الكفلاء الأغنياء الذين لا يخشون الله في أموال اليتامى، فيضمونها إلى مالهم من أموال. وكافل اليتيم في الحديث الأول هو الذي يقوم بأموره في الدنيا والدين، وذلك بالنفقة عليه والكسوة والمسكن والتربية سواء من ماله الخاص أو من مال اليتيم، وكافل اليتيم له أو لغيره في الحديث أي كافل اليتيم القريب كأن يكون جده أو أخاه أو عمه أو غيرهم من أقربائه، وكافل اليتيم لغيره الأجنبي من غير الأقرباء. ويقول الله لكفلاء اليتيم في الآية السادسة في السورة: اختبروا اليتامى حين يوشكون على البلوغ في سِنَّ الخامسة عشرة، فأعطوهم شيئا من أموالهم وانظروا كيف يتصرفون ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ أي تصرفا سليما ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ فهي تدفع إليهم بشرطين: البلوغ وتحقق الرشد ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا ﴾ أي بالإسراف في الإنفاق والتبذير فيه قبل البلوغ ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا ﴾ من الكفلاء فَلْيَسْتَعْفف قيل هذا أمر للوجوب: تعفف الكفيل الغنى عن أخذ مقابل لكفالة اليتيم، وقيل بل أمر للندب فيجوز أخذ أجر مثله ﴿ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

ويقول الله- تَقدس اسمه- في الآية الثانية إن من يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا أي أنهم يعذبون بها وسيصلون نار الجحيم في الآخرة، وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات من الفواحش الكبرى، وعدَّ منها أكل مال اليتيم. وسأل رجل الرسول- كما في الحديث الثاني-أن عنده يتيما له مال بينما هو ليس له مال فهل يأكل من مال اليتيم؟ فقال الرسول له: كُل بالمعروف غير مسرف أي أنه يأكل بما لا يتجاوز أجر مثله، واختلف الأسلاف هل مثله يرد ما أخذه من مال اليتيم؟ قولان أصحهما أنه لا يردّ ما أخذه، لأنه أخذ أو أكل بأجرة عمله وكان فقيرا.

والآيتان الأوليان في اليتامى ذوى الأموال، والآيات التالية في اليتامى الذين لا كاسب لهم وهم صغار ضعفاء دون القدرة على التكسب، ودون البلوغ، وجعلهم الله في القرآن مرارا من مصارف الصدقة والزكاة مثل الفقراء والمساكين. والله يقول في سور البلد إنا أوضحنا للإنسان طريقي الخير والشر، ويفاخر بما ينفق من مال كثير، ومع ذلك لم يقتحم ولم يدخل الطريق الشاق: طريق تحرير العبيد الأرقاء أو طريق إطعام قريبه اليتيم في يوم مسبغة ومجاعة حين يشتد الجوع، وحين تشتد الحاجة إلى الطعام. وجعل الله إطعام اليتيم كأنه يساوى فك رقبة أو تحرير عبد حثا على هذا الإطعام لليتامى الفقراء البائسين. ويحض الرسول صلى الله عليه وسلم على الصدقة الكريمة لليتامى الفقراء الأقرباء قائلا: الصدقة على المسكين صدقة واحدة وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة.

ويقول الله- عزَّ شأنه في سورة الماعون مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلَّم ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ يا محمد ﴿ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ أي بالمعاد والحساب والجزاء والثواب ﴿فذلك﴾ أي فهو ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ أي يدفعه بعنف في جفوة شديدة. والآيتان تؤذنان بأن الإيمان بالمعاد والبعث من شأنه أن يرقق القلوب وأن يملأها بالعطف والحنو على اليتامى والفقراء. ويدعو الله في سورة الفجر إلى إكرام اليتيم وحسن معاملته وبره لانكسار خاطره بفقد أبيه، وإذا كان هذا الإكرام مطلوبا من كل إنسان فإن أجره يتضاعف من الأقرباء ذوى رحمه. وينوه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع بالبيت الذي يأوي يتيما ويحسن أهله معاملته ابتغاء مرضاة الله، ويقول إنه خير بيت من بيوت المسلمين لما يأخذون به اليتيم من اللِّين والرفق والمعاملة الطيبة.

٤٥- إكرام الجار والضَّيف

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ

النساء:٣٦

٢- هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

الذاريات: ٢٤- ٢٨

الأحاديث

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: مَنْ يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يَأْمَنُ جارُه بوائقه أي شروره (رواه البخاري في الأدب).

٢- عن ابن عمر والسيدة عائشة رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (رواه البخاري في الأدب).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه (رواه البخاري في الأدب).

٤- عن خُوَيلد بن عمرو الخزاعي رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضَيْفه جائزته قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يومه وليلته. والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه (رواه البخاري في الأدب ومسلم في كتاب اللقطة).

openkandil.com

والله في الآية الأولى يأمر بالإحسان والحنو على الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، وعرضنا فيما مر للإحسان والبر بهم جميعا، ويأمر أيضا بالإحسان إلى الجار ذي القربى، وكأن مقتضى الإحسان إليه عاملان: الجوار والقرابة وشدَّد الإسلام في الإحسان إلى الأقرباء توثيقا لعلاقات المودة بين الجيران فما بالك إذا كان من بينك وبينه صلة القرابة جارا لك، فإن حق الإحسان إليه يتضاعف ويصبح حقين: حق القرابة وحق الجار. وكأن القرآن ينكر ما يكون أحيانا بين الأقرباء من تنافس وتحاسد، لأن ذلك يجرُّ إلى البغضاء التي قد تكون أحيانا بين مسلم ومسلم، وهو يدعو إلى أن تكون بينهما أخوة رقيقة لا تعرف البغض وإنما تعرف المحبة والمودة والرحمة. وذهب بعض المفسرين للآية إلى أن الجار ذا القربى هو الجار القريب الدار، والجنب بعيدها، وكلمة القربى لا تستعمل في القرب المكاني إنما تستعمل في القرابة بين ذوى الرحم. وأكد الرسول صلى الله عليه وسلم التوصية بالجار مرارا وتكرارا موضحا حقوقه على نحو ما نرى في الحديث الأول إذ جعل الجار الذي تكثر شروره ودواهيه على صاحبه غير مؤمن لأنه لا يتبع وصايا القرآن للمؤمن، إذ لا يسدُّ خلة جاره من المؤمنين ولا يحسن معاملته فضلا عما ينبغي له من حقوق عليه. وفى الحديث: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسنْ إلى جاره، وعن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصاه إذا طبخ مرقا أن يكثر ماءه، ثم لينظر أهل بيت من جيرانه، فيصيبهم منه بمعروف. ويقول: يا نساء المسلمين لا تحقرن جارةٌ ما تهديه لجارتها ولو كان ظلف شاة أي تهديها بما تيسر. وقال صلى الله عليه وسلم: الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فأما الجار الذي له حق واحد فالجار المشرك له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان فجار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له ثلاث حقوق فجار مسلم ذو رحم، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم. وتراه في الحديث الثاني يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه أي سيجعل له الجار حق إرثه. والجار في اللغة الذي يلاصقك في المسكن، أما في الشرع أو الشريعة الإسلامية فأربعون دارا من كل جانب. وهذه الوصايا الكثيرة للجار يراد بها قيام الألفة والمودة بين الجيران.

والآيات التالية من سورة الذاريات تحكى قصة ضيوف إبراهيم الخليل من الملائكة وقد ذكرت في سورتي هود والحِجر. والضيف اسم للواحد والجمع، ويقال إنهم كانوا ثلاثة: جبريل

وميكائيل وإسرافيل. والله يقول لرسوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ﴾ وهو استهلال يدل على أن ما بعده خبر عظيم، وهو قصة ضيف إبراهيم المكرمين. والوصف بالمكرمين لا لئنَّ إبراهيم الخليل سيكرمهم، بل لأنهم ملائكة وصفتهم في القرآن أنهم مكرمون كما في سورة الأنبياء: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ وسورة الانفطار: ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾. وتقول القصة إنهم دخلوا عليه ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي أنهم حيوه فرد عليهم تحيتهم ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي تسلَّل إليهم خفية ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ من خيار عجوله، وفى سورة هود ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي مشوي ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فلم يمدوا أيديهم إلى الطعام. ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أحسَّ منهم خوفا، وأضمر ذلك في نفسه إذ خاف أن يكونوا مضمرين له شرا، وظهر ما في نفسه من خوف على وجهه ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وعرَّفوه بأنفسهم وأنهم ملائكة ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ هو ابنه إسحق. والقصة تحمل آداب الضيافة فقد نزل عليه هؤلاء الملائكة فاستضافهم، وفى رأى بعض العلماء من الأسلاف وجوب الضيافة لمن ينزل عليك.

والآيات تحمل آداب الضيافة، فإبراهيم يحسن استقبال ضيوفه ويبادلهم التحية وينسلُّ إلى أهله ليحضر طعاما غير مجاهر لهم خشية أن يكفُّوه عن ذلك وشوى لهم عجلا من خيار ماله، وقرَّبه من مجلسهم ولم يقربه إليه تلطفا منه لهم وإكراما، بل وضعه بين أيديهم، وعرضه عليهم قائلا ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ تتمة للإكرام. وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بإكرام الضيف مرارا وتكرارا كما في الحديثين الثالث والرابع، وهو في الحديث الأخير لا يريد أن يزيد الضيف في ضيافته على ثلاثة أيام حتى لا يثقل على من نزل عنده ومخافة أن لا يكون عنده ما يضيفه به ويضطر إلى الاستدانة من أجله.

٤٦- عيادة المرضى- تشييع الجنازات مع الصلاة- زيارة القبور

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا

آل عمران ١٤٥

٢-فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)

النحل ٦١

٣-وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ

لقمان ٣٤

٤-كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧)

العنكبوت ٥٧

الأحاديث

١- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حق المسلم على المسلم خمس وعدَّ منها: عيادة المريض واتباع الجنائز (رواه البخاري في كتاب الجنائز ومسلم في كتاب السلام).

٢- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لطم الخدود أو شقَّ الجيوب. (رواه ابن حنبل في مسنده).

٣- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا صلَّيتم على الميت فأخْلِصوا له الدعاء (رواه أبو داود).

٤- عن بُرَيدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها (رواه مسلم في كتاب الجنائز ورواه ابن ماجه عن ابن مسعود).

obeikandl.com

والرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول يدعو كل مسلم إلى زيارة أخيه وصديقه إذا ألم بهما مرض، ويجعل له في هذه المواساة ثوابا عظيما، ويقول في حديث له رواه البخاري عن أبي هريرة: إن الله عَّز وجَّل يقول يوم القيامة يا بن آدم مرضتُ فلم تَعُدْني قال: يا ربِّ كيف أعودُك وأنت ربُّ العالمين قال الله: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تَعُده ؟ أما علمت أنك لو عُدْته لوجدتني عنده. وليس ذلك في المكان، فالله مقدس عن المكان والحلول فيه، وإنما بالعلم، فعلمه شامل لجميع الموجودات: كما قال: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ بالعلم، فعلمه يحيط بكل ما في الوجود. ولعيادة المريض أو زيارته آداب، ألف فيها الأسلاف، منها أن لا يطيل الزائر الجلوس عند المريض إلا إذا طلب منه ذلك أنسًا به، ويسأل الزائر المريض عن حاله ويرفّه عنه كربه بالمرض، وأن الله لن يطيله عليه وسيعافيه منه سريعا.

والآية الأولى تذكر أن أحدا لا يعلم وقت موته وانتهاء أجله إلا الله وحده ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ وهو مدبِّر الكون وصاحب الأمر، وإذا أراد شيئا يقول له كُن فيكون تَوا، ويقول جَّل شأنه: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾. ويقول الله في الآية الأولى: ﴿ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي أن كل أجل محدد بوقت في علم الله كما قال سبحانه في سورة الحج: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ أي في علم الله.

والآية الثانية تذكر أنه لا إمهال لأحد إذا حل أجله فلا يغرنه تأخير أجله. ويطلق الأجل على الوقت المحدد لحياة الشخص كما يطلق على منتهاه، وهو في الآية يمكن أن يكون المراد به أحد هذين المعنيين. وقوله تعالى في الآية الثانية ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي لا يتأخرون عن الأجل ولا يتقدمون والمراد أنه محدد ولا يتأخرون عنه بحال إذ هو مقدر بعلم الله ولا يستطيع أحد تغييره أو تعديله.

والآية الثالثة تنفى دراية النفس بما تكسب غَدًا، لأن علم ذلك مغيب عنها، ولا يعلمه إلا الله وهل تكسب خيرا أو شرا وهل تكسب قليلا أو كثيرا، فعلم ذلك عند الله وحده. وبالمثل لا تدرى

نفس بأي أرض تموت، وهل تموت برا أو بحرا أو جوًّا ؟ وهل تموت في موطنها أو تموت في موطن آخر؟ ولا يدرى شخص متى يموت؟ فقد يموت غدا أو بعد غد، فالله وحده هو العالم بذلك كله المختص به جَلَّ جلاله.

والآية الرابعة مثل الآيات السابقة تذكر أن الموت مصير لكل نفس، فكل من على الأرض فانٍ، وأينما يكون الإنسان يدركه الموت. وينبغي أن يجعل المسلم هذا المصير نصب عينيه، فيطيع الله طاعة صادقة مخلصة، ويأتمر بكل أوامره وينتهي عن كل نواهيه، إذ الموت لا بد منه ولا مفر، ثم إلى الله- كما تقول الآية- المرجع والمآب فمن كان مطيعا لله نال أفضل الجزاء وأدخل الجنة، ومن كان عاصيا نال جزاء عصيانه، وأدخل النار.

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقن بعض الأهل من يموت في احتضاره شهادة أن لا إله إلا الله، وعن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة. وفى البكاء على الميت أحاديث كثيرة تجيزه، ورأى سعد بن أبى وقاص الرسول تفيض عيناه صلى الله عليه وسلم في وفاة ابن لإِحدى كريماته، فقال له ما هذا يا رسول الله، قال: هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء. وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم النساء عن لطم الخدود وشق الجيوب كما في الحديث الثاني.

صلاة الجنازة: يكبِّر المصلى أربع تكبيرات، يتعوذ بعد الأولى ثم يقرأ الفاتحة ثم يكبر الثانية ويقول اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إلى إنك حميد مجيد. ثم يكبر الثالثة ويدعو للميت وللمسلمين، ثم يكبر الرابعة، ويدعو. ومن أحسن الدعاء اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنَّا بعده، واغفر لنا وله. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث: إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء أي بعد التكبيرة الثالثة، ومن أحسنه: اللهم اغفر له وارحمه وأكرم نُزله، وأَبْدِلْه دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وأدخله الجنة، وأعِذْه من عذاب القبر وعذاب النار.

وتستحب كثرة المشيعين للجنازة والموعظة عند القبر، كما يستحب الدعاء للميت بسؤال الغفران له وأن يقرأ عنده شيء من القرآن، ولو خُتم القرآن عنده أو في داره رحمة له كان ذلك

حسنا. وتستحب أيضا الصدقة له والدعاء، وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له.

وتستحب زيارة القبور والدعاء فيها للموتى، وفى صحيح مسلم عن بُرَيْد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. وعن بريدة أيضا في صحيح مسلم: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا- إن شاء الله- بكم لاحقون. وفى صحيح مسلم عن السيدة عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في آخر الليل إلى البقيع (مقبرة شهداء بدر وأحد) فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون. غَدًا مؤجَّلون، وإنا- إن شاء الله- بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل البقيع.

obeikandl.com

٤٧- فعل الخير

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

البقرة ٢٧٢

٢-وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ

آل عمران ١١٥

٣-وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا

المزمل ٢٠

٤-فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧)

الزلزلة ٧

الأحاديث

١- عن عديّ بن حاتم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تَحْقِرَنَّ من المعروف والخير شيئا ولو أن تُفْرِغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط (رواه البخاري) وفى رواية أخرى عن عديّ: ولو بكلمة طيبة.

٢- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى الناس (رواه مسلم) وفى رواية ثانية لمسلم عن أبى هريرة: مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال والله لأُنَحِّيَنَّ هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم فأُدْخِلَ الجنة. وفى رواية ثالثة لمسلم عن أبى هريرة: بينما رجل يمشى

obeikandl.com

بطريق وجد غصن شوكٍ على الطريق فأَخَّره فشكر الله له فغفر له (روى مسلم كل ذلك في كتاب البر).

٣- عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مسلمٍ يَغْرِس غَرْسًا إلا كان ما أُكِل منه له صدقة، وما سُرِق منه له صدقة ولا يرزؤه (ينقص منه) أحد إلا كان له صدقة (رواه مسلم). وفى رواية لمسلم عن جابر: لا يغرس المسلم غرسا فلا أكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة (روى مسلم ذلك في كتاب المساقاة).

٤- عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحبّ إليه من مال وارثه، قال إنما مال أحدكم ما قدَّم ومال وارثه ما أَخَّر أي من أعمال الخير (رواه البخاري في كتاب الرقاق).

والله- جَلَّ شأنه- في الآية الأولى- يقول للمؤمنين إن كل ما تنفقونه من خير فلأنفسكم لأنه عائد عليكم بأجر ضخم من رب العزة. وإنكم لا تنفقون خيرا قليلا أو كثيرا إلا ابتغاء وجه الله وابتغاء مرضاته، وإنكم ستوفون يوم القيامة أجر ما تنفقون كاملا لا ينقص منه شيء، ولا تظلمون فيه أي ظلم بل ستوفون أجوركم وحقوقكم كاملة. وقد افتتحت الآية بقول الله للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ أي هدى المشركين والكافرين ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ من المشركين وغيرهم. وعن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأن لا يتصدَّق أحد من الصحابة إلا على المسلمين، فلما نزلت هذه الآية أمر بالصدقة بعدها على كل من سأل صحابيا من أي دين، فإذا تصدق مسلم على مشرك ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، وهو لطف عظيم من الله عز شأنه بعباده حتى المشركين الذين يشركون الأوثان والأصنام وآلهتهم في عبادته.

والآية الثانية تقول إن كل ما يفعله المؤمنون لن يكفروه أي لن يضيع ثوابه عند الله، بل سيجزون عليه أوفر الجزاء. والخير يشمل كل ما فرضه الإسلام من عبادات ومعاملات طيبة وكل ما فرضه على المسلم من إنفاق على أسرته وذوى الرحم ومن زكاة لمصلحة المجتمع، سوى ما ندب إليه من الصدقة وجميع وجوه البر والخير، والله يجزى عنها جميعا الجزاء الأوفى. ومما يصور جزاءه

وأنه قد يكون عاجلا في الدنيا حديث الغار والصخرة الذي مرَّ بنا والذي رواه عبد الله بن عمر إذ قال إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن ثلاثة آواهم المبيت في غار، وانحدرت صخرة من الجبل سدَّتْ عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجينا من الصخرة إلا دعاء الله بصالح أعمالنا، فذكر أولهم أنه كان له أبوان شيخان كبيران، وكان يحلب لهما من أغنامه في كل مساء لبنا، وتأخر عنهما يوما فوجدهما نائمين، فظل بجوارهما، والقدح على يده، حتى هلَّتْ تباشير الفجر، فاستيقظ أبواه، وشربا اللبن، واتجه إلى ربه يقول له إنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة قليلا، وقال الثاني إنه كان يحب ابنة عم له وأرادها على نفسها، فأبت إباء شديدا، وانتهز فرصة حاجتها إلى مال، فقدم لها المال على أن ينال ما أراد منها، ولما همَّ برغبته قالت له: اتقِّ الله، فانصرف عنها وترك لها المال، ودعا ربه قائلا إنه صنع ذلك ابتغاء وجهه وسأله أن يفرج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة قليلا. وقال الثالث- كما ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع- أنه كان استأجر عمالا في أداء عمل وأدوه، وغاب منهم عامل فثمَّر له أجره، وظل يثمره أو يستمثره سنوات، حتى استحال إبلا وبقرا وغنما، وجاءه العامل يسأله أجره، فقال له إننى ثمرت مالك، وقدم له غنمه وبقره وإبله فاستاقها جميعا. واتجه إلى ربه داعيا أنه فعل ذلك ابتغاء وجهه، وسأل أن يفرِّج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة نهائيا. والحديث رواه البخاري ومسلم، ولم أروه بلفظه لطوله، وهو يصور مدى انتفاع المسلم بأعماله الخيرة الطيبة، فإنه إذا توسل بها إلى الله تعالى في شدة أو حالة خطيرة استجاب له وفرَّجها عنه على نحو ما فرَّج عن هؤلاء الثلاثة الكرب العظيم الذي كانوا فيه.

ويقول الله- عزَّ شأنه- في الآية الثالثة إنه كل ما تقدمونه لله من خير وأعمال طيبة تجدون جزاءه عنده، وهو جزاء مضاعف كما قال ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يترك أي عمل طيب، مهما كان قليلا، إلا وينبه على أنه عمل خير يجزى الله عليه، كما في الحديثين الأول والثاني فقد رأى رجلا ينعم في الجنة بنعيمها لأنه نحَّى عن الطريق شجرة تؤذى، وبالمثل من نحَّى غصن شوك عن الطريق كان يؤذى الناس فإن الله يغفر له، ويكرر الرسول أن من ينحَّى الأذى أي أذى عن الطريق يغفر الله له. ونوه طويلا بأن عمل

الإنسان لقوته في أي زراعة أو صناعة أو تجارة يعد من وجوه الخير المثابة، وما يغرس غرسا كما في الحديث الثالث ويأكل منه إنسان- ولو سرقة- أو دابة أو طير إلا يؤجر عليه.

ويقرأ الرسول الآية الثالثة ويعلق عليها بالحديث الرابع الذي يقول فيه إن مال الإنسان أحب إليه من مال وارثه، ويشبِّه ما يقدمه إلى ربه بماله، ونعم هذا المال المقدم إلى الله، أما مال الوارث فليس ماله. وهو بذلك يحبب إلى المسلم عمل الخير. ويكاد يجعل كل أعماله النافعة خيرا، وحتى الكلمة الطيبة يرضى بها الإنسان شخصا يعدها من وجوه الخير المثابة، وحتى لقاء أخيك بوجه طلق كما في الحديث الأول تثاب عليه، وحتى إمساكك عن الشر في حديث رواه أبو موسى الأشعري يُعَدّ من وجوه الخير، وناهيك بإغاثة المحتاج وإطعام الجائع المسكين فإن الأجر على ذلك عظيم.

وكان الصحابة يتحرجون من أن يعطوا الفقير أو المسكين شيئا قليلا، وكان الفقير يجئ إلى أبوابهم، فيتحرجون من إعطائه الكِسْرة أي القطعة من الخبز وإعطائه التمرة والتمرتين، فنزلت الآية الرابعة: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي وزن أصغر شيء ﴿ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ فإن ذلك يقدر له أجره به مضاعفا، ونَّبه الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك مرارا، وكان لا يني يقول للصحابة: اتقوا النار ولو بشِق (نصف) تمرة، ومن قوله للسيدة عائشة أم المؤمنين: اسْتَتِرى من النار ولو بِشق تمرة فإنها تسدُّ من الجائع مسدَّها من الشبعان. وكان يقول: يا معشر نساء المؤمنين لا تحقرن جارة ما تعطيه لجارتها الفقيرة ولو فِرْسِنَ شاة أي حافرها، يريد أن لا تمتنع جارة مسلمة من إهدائها إلى جارتها المحتاجة شيئا عندها تحتقره أو تظنه قليلا، فيقول ينبغي أن تجود على جارتها بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة.